حُفَّاظ 51

الإشهاد الأكبر في الأذكار

تأليف
توفيق بن خلف بن عبد الله الرفاعي

الإشهـــاد الأكبـــر

في الأذكـــار

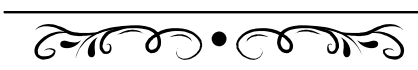

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ-٢٠٢٣م

الإشهاد الأكبــر

في

الأذكـــــــــار

تَأْلِيف

توفيق بن خلف بن عبد الله الرفاعي

بسم الله الرحمن الرحيم

حديث الإشهاد الأكبر في الأذكار

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ أَوْ يُمْسِي: اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلَائِكَتَكَ، وَجَمِيعَ خَلْقِكَ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ أَعْتَقَ اللهُ رُبُعَهُ مِنَ النَّارِ، فَمَنْ قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَعْتَقَ اللهُ نِصْفَهُ، وَمَنْ قَالَهَا ثَلَاثًا أَعْتَقَ اللهُ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِهِ، فَإِنْ قَالَهَا أَرْبَعًا أَعْتَقَهُ اللهُ مِنَ النَّارِ**»[(١)].

(١) رواه أبو داود (٥٠٦٩)، قال الإمام النووي في الأذكار (١ / ٦٥): روينا في سنن أبى داود عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال عبد القادر الأرنؤوط: (١ / ٦٥): قال الحافظ في تخريج الأذكار: إنه حسن. اهـ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

المقدمة: صوت والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

لا يزال صوت والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتردَّد صداه في صدري. وقد كان ولا يزال تناغمه مع معاني هذا الذكر الكبير كبيرًا وأنا فتى صغير؛ فيعلو هتافًا وتعظيمًا مرة .. ويخفت تذلُّلًا وخشوعًا مرات .. ويستقيم ما بين ذلك، فَيَعْذُب كأنه الريح الرخاء ونحن خارجون من مسجد آل طاهر في جزيرة فيلكا في الكويت من صلاة الفجر وذلك عام ١٩٦٨م، وهكذا حين جاورنا مسجد شعيب وقد ناهزت سن البلوغ عندها، وما سمعت من أحدٍ قط هذا الذكر قبل والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وما من يوم رجعت معه رَحِمَهُ ٱللَّهُ من صلاة الفجر إلا كان يقول الأدعية بشكل عام، أما هذا الدعاء فقد كان له معه وقع خاص .. وكان له وقع في نفسي وفي حياتي لا يعلمه إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بعد ذلك.

فلقد انغرستْ بذرة التدبُّر في هذا الذكر العظيم منذ ذلك الفجر المبارك حتى هذا اليوم وإلى أن ألقى الله عَزَّوَجَلَّ بإذنه، ورجائي من ربي أن يجعل أجر هذا الكتيب وآثاره لنا ولوالدينا أجمعين ولجميع المسلمين والمسلمات اللهم آمين.

ولما أن كبرتُ استمرتْ صحبتي لهذا الذكر العظيم وتوثَّقت وتعمَّقت أكثر وأكثر .. إلى أن جئتُ إلى دُبَيّ وابتدأ معيَ مشوار التأليف وجدَّ ... وابتدأ معي الصحبة الملازِمة صاحب جديد اسمه [السُّكَّر] واشتدَّ .. فاستدعيت له صاحبًا جديدًا اسمه [المشي]، وما وجدت صاحبًا لهذين الصاحبين أحسن ملازمةً ونفعًا من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ.

أما هذا الذكر فكان يزداد مرافقةً ومعانقةً للروح... حتى كان يطيل معي المشيَ إذا جاء دوره بين الأذكار ... إذ أُطيل معه بالتدبُّر والتلذُّذ والتكرار ... إلى ما قبل خمسة أيام من هذا اليوم الأحد ١٤ من رجب سنة ١٤٤٤ هـ الموافق ٥ من فبراير سنة ٢٠٢٣ م ... فقد بِتُّ في هذه الليلة وحيدًا في غرفتي وهي مظلمةٌ شديدة الظلام كما هي عادتي في وحدتي، وحين توسَّدت وسادتي وأردت أن أبدأ أذكار النوم إذ بي أتذكر أنني لم أذكر أدعية المساء أساسًا، فشرعت في أذكار المساء في ذلك الظلام، وإذا بغشاوة رقيقة من نعاسٍ أخذتني وكنت في لحظتها في حالٍ أشبه بما قال النبي ﷺ: «**بَيْنَا أَنَا بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ**»[(١)]، حيث رأيتُ أنَّ باب الغرفة قد فُتح ودخل منه مجموعة من الأشخاص وكانوا يحملون ميزانًا .. وقد كان جديدًا، وكان الميزان وحده محاطًا بنور خفيف كي أتيقن أنه ميزان، أما غير ذلك فلا أرى شيئًا حتى وضعوا الميزان في الغرفة قِبَلي، ولم أرَ رؤوس حَمَلَةِ الميزان لِعِظَمِ خَلْقِهم .. وانتهت الرؤيا. ولم أشك لحظة أنها رؤية عين لا رؤيا منام.

هنا انتبهتُ إلى أمرٍ فاصل؛ وهو أن تَوْقِيتَ إدخال الميزان كان تحديدًا عند

(١) أخرجه الرامهرمزي في أمثال الحديث (٥).

ابتداء ذكري هذا [الإشهاد الأكبر في الأذكار]: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَمْسَيْتُ أُشْهِدُكَ، وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ، وَمَلَائِكَتَكَ وَجَمِيعَ خَلْقِكَ، أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ**»[(١)]، والحمد لله رب العالمين.

ورغم أن الرؤيا واضحة التعبير إلا أني سألتُ مَنْ هو أعلم مني بتعبير الرؤيا، فقال: هذا الميزان خاص بهذا الدعاء أي دعاء الإشهاد الأكبر .. لأنه لم يُؤتَ به من أول أذكار المساء، وإنما عند قولك هذا الدعاء، وكونه نورًا؛ فإن هذا الذكر نور خالص، وهذا عمل محض خالص صالح، وأنَّ الله سبحانه هو مَن ذكَّرك أذكار المساء ليوصلك إلى هذا ومعه هذه الرسالة، ولولا الله لفاتك أجرها بشكل عام وأجر هذا الدعاء على وجه الخصوص، وهذه نعمة عظيمة يجب أن تَشكر الله عليها، وأنك يجب أن تبلِّغ هذا الذكر مَن استطعت مِن الناس، فهذا الميزان ليس لك وحدك وإنما هو للناس، وما الإشارة إلى عظمة خلق حَمَلَة الميزان إلا بيانًا لعظمة ما يمكن أن يحمله ذلك الميزان، وانتهى التعبير، والحمد لله رب العالمين.

وهنا تذكَّرت أني كتبتُ قبل سنوات عدة كتب في [أم الكتاب] لم يُطبَع منها إلا كتابان أو ثلاثة، وهي سلسلة أسميتها [الفتح بالفاتحة] وعندي البقية مطبوعة في الطابعة، وربما تصل إلى ثمانية كتب ومنها كتاب [أم الكتاب هي الأُم في أسماء الله الحسنى]، ومنها كتاب كامل اسمه [أم الكتاب هي الأم في معرفة اسم

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٦٩)، وجوَّد إسناده النووي في الأذكار ص (٧٩)، وحسنه ابن حجر في نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار (٢/ ٣٧٦).

الله [الله] عَزَّوَجَلَّ] .. فلقد كتبتُ في ذلك الكتاب مبحثًا خاصًّا عن هذا [الإشهاد الأكبر في الأذكار] ..

فذكرت هذا لأخي المعبِّر حفظه الله وعافاه فقال لي: إن مقصد نشر الرؤيا هذه مع الشرح الذي كتبتُه على الحديث غاية وإلا فهذا الذكر معروف ومحفوظ والله سبحانه يعلم بما كتبت ولهذا جاءتك أنت الذكرى وجاءك التكليف بهذا، ونشر هذا الذي كتبت جزء لا يتجزأ من الرؤيا ..

هذه قصة هذا الكتيب، وهذا هو الباعث على استخراجه من ذلك الكتاب ونشره منفردًا دون تأجيله حتى نشر ذلك الكتاب كاملًا.

وهكذا ترى أن قصتي مع هذا الحديث الكبير قد اجتمعت أطرافها وأحكمت في مفاصل حياتي إحكامًا ... من طفولتي إلى بلوغيَ الأَشُدَّ ... إلى دراستي ... إلى زواجي وهجرتي إلى دبي ... إلى مرضي بالسكر ... وأخيرًا إلى رؤيتي هذه في نومي ... فعلمت أن هذا ليس حقي وحدي ولا هو لذاتي .. وإنما هو للمسلمين والمسلمات ممن يمكن أن يصل إليهم .. وأن الأمة أحوج ما تكون إلى العودة إلى الله من خلال فهم هذا [الإشهاد الأكبر] في هذا العصر والعمل بمقتضاه .. وأحوج ما تكون لِتجديدِ هذا العهد مع الله في الصباح والمساء .. وأي بخيل أعظم بُخلًا ممن يبخل بتذكير أُمَّته بشيء لا كدَّ له فيه ولا فضل ولا إنفاق درهم .. وفيه الخير العظيم للآخرين.

تساؤلات حول الرؤيا: وَلْنتساءل الآن بعض الأسئلة قبل أن ندخل في حديث [الإشهاد الأكبر في الأذكار]، وما ذلك إلا لتعلُّقها بهذا الإشهاد، وتعلُّقها بالمسلم في كل زمان وفي هذا الزمان خاصة:

المبشرات: تقول: وهل رؤياك تشريع يا هذا؟

أقول: معاذ الله أن أقول هذا وإني أبرأ إلى الله من هذا .. ولكن أليست هذه الرؤيا حقًّا؟!

أم أنَّ هذه الرؤيا من الشيطان -نعوذ بالله منه- ؟! أليستْ رؤى الشيطانِ عَبَثًا ومَسًّا وتخبُّطًا وشُؤمًا، بينما الرؤيا التي من الله سبحانه إنما هي بشرى ولا تكون إلا خيرًا كما سَمَّاها النبي ﷺ: «**المُبَشِّرَاتِ**»، ثم أليست غاية الشيطان من الحِلْم إنما هي ﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المجادلة: ١٠]؟

فهل هذه الرؤيا من هذا الطراز الشيطاني عياذًا بالله؟!

أليست هذه الرؤيا تحمل بشرى عظيمة للمسلمين والمسلمات؟!

أليس فيها تحريض لكل مؤمن أَنْ حافِظْ على هذا العهد مع الله؟!

أليس فيها نداء للبعض: أن تعالَ وتدبَّر ما كنت تقوله منذ زمن ثم تَرَكْتَهُ؟! وأنت يا مَن مرَّ عليك هذا الذكر من قبل ولم تحافظ عليه؟! وأنت يا مَن تحمَّستَ له أول مرة ولم يبقَ عندك منه اليوم إلا ألفاظ؟! وأنت يا مَن ما زلتَ تقوله إلا أنك لم تعطه حقه .. فهاك الذكر وحقه جميعًا؟! ويا من لا زلت تحافظ عليه مجتهدًا متدبِّرًا .. فهذا الميزان لك .. فاثبت وازدد فإن هذا الميزان لا يثقله شيء أبدًا!

ثم إني أريد أن أسأل هل مِن حَقِّ مَنْ بُشِّر بشارة هي من حق المؤمنين الذاكرين الله والذاكرات أن يدَّخرها لنفسه لئلا يُذَمَّ أو يُنتقص؟!

أليس مثل هذا القصد والفعل خيانة .. وهل ادَّخر رسول الله ﷺ لنفسه بشارة من البشارات، وبشاراته في القرآن العظيم لا تعد ولا تحصى والله أبدًا ..

فما بشَّر به رسوله ﷺ من المبشرات له في القرآن إنما هي فوق الحصر والحساب .. وما ظهر منها كثير.. وما أعظم حاجتنا اليوم إلى المبشرات من الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله ﷺ الثابتة في القرآن العظيم في هذا العصر البعيد لواقع الأمة المرير، فما من بشرى لرسول الله ﷺ خاصة إلا وجعلها رسول الله ﷺ لأمته عامة. والحقيقة المُرَّة أن نفسية الأمة اليوم غدت نفسية متشائمة لا تستطيع استيعاب البشائر وهي ترى الواقع في واد والبشائر في وادٍ آخر، وما من أحدٍ أعلم بحال الأمة من رسول الله ﷺ، ولذلك بشَّر هذه الأمة في آخرها كثيرًا .. كما فتح باب البشائر وما أكثرها خصوصًا في آخر الأمة من خلال الرؤيا الصالحة، بل إنه قد وثَّق وأيَّد الرؤيا الصالحة، وأنها من الوحي، وفتح بابها العظيم ووسَّعه وذكر أنها أكثر ما تكون كلما اقتربت الساعة واشتد عليها الأمر، ولهذا خصَّنا النبي ﷺ -نحن أهل هذا الزمان- بالعناية والاهتمام العظيم بالمبشرات وبشَّرنا بكثرة الرؤيا الصادقة عند الصادقين في هذا الزمان الأخير، فقال ﷺ: «**إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ تَكْذِبُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ، وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**»[(١)]، فهل تخفى حكمة وجود المبشرات بهذه الكثرة في زمن الكوارث على الأمة. ولو عَلِمَ الناس ما جعل الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن العظيم من المبشِّرات لتغيَّر حالهم وتقارب إيابهم.

وإن من هذه البشائر العظيمة التي أهملناها .. وما عُدْنا نُرْعِها أسماعنا ولا اهتمامنا وهي الرؤيا الصالحة ...! كيف وقد سمَّاها رسوله ﷺ [المُبَشِّرات]، كيف وقد خصَّ بالمبشرات أكثر بعد ذهاب النبوة وختمها! كيف وقد قال عنها:

---

(١) رواه البخاري (٧٠١٧)، ومسلم (٢٢٦٣).

«الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»[١] .. ولما أراد الله سبحانه إحداث أعظم أمر في الوجود مطلقًا وهو إرسال رسوله ﷺ كَثُرَتْ عنده الرؤيا الصالحة قُبَيْلَ نزول الوحي عليه ﷺ ... «**أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ**»[٢]، كيف وقد ... «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى الصُّبْحَ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ فَقَالَ: هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمُ الْبَارِحَةَ رُؤْيَا؟**»[٣] وهو ما يأتيه الوحي في كل وقت وحين، وهل من باب من أبواب التشريع ليس فيه تشريع برؤيا رآها المصطفى ﷺ أو رآها واحد من صحابته أو أكثر رضي الله عنهم .. في الصلاة، والطهارة، والزكاة، والصدقة، والصيام، والحج، والجهاد، والماضي، والواقع، والمستقبل، والدنيا، والآخرة وكل ذلك والوحي يُصَبِّحُهُ وَيُمَسِّيه، فكيف بعصرنا هذا الذي أصدق ما يصدق عليه قول النبي ﷺ في آخر حياته: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَهُ**»[٤].

تقول: وهل لهذه الرؤيا من أصل في موضوع الميزان الذي نُصِبَ لها خاصة وأنت تنظر إليه في المنام؟

أقول: أما الرؤيا فهي لا شك أنها كغيرها رمزية، ولذا لا بد لها من تعبير خاص، ورمزيتها هنا واضحة التعبير لا تحتاج إلى كثير فقه ولا تدقيق، وأَمَّا أَنَّ لهذه الرؤيا أصل في أمر الميزان للذكرِ؟! فإي والله قد ورد أصل ذلك عن رسول

(١) رواه مسلم (٢٢٦٣) واللفظ له، والبخاري (٧٠١٧).
(٢) رواه البخاري (٦٩٨٢).
(٣) رواه مسلم (٢٢٧٥).
(٤) رواه مسلم (٤٧٩).

الله ﷺ؛ ففي الحديث الذي رواه الإمام الترمذي عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا، أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ**»[(١)].

أليست شهادة [لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله] موجودة في حديث البطاقة، كما أنها موجودة في هذا الحديث بأعلى الصيغ وهي صيغة الإحسان؟!

أليست هي هنا ثابتة «أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ» فأي صيغة تأكيد وإحسان لشهادة التوحيد مثل هذه الشهادة؟!

وهل كثيرٌ هذا الميزان على هذه الشهادة؟!

وهل كثيرٌ أن يرسل الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الزمان زمان الفتن والزيغ والشبهات من البشائر ما يُثَبِّت أفئدة المؤمنين؟

وهل لو قال هذا الإشهاد غير مسلم ناويًا دخول الإسلام لحق لأحدٍ أن يردَّ إسلامه بدعوى أنه لم يشهد الشهادتين بذات اللفظ المعتاد؟

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٣٩)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وأحمد (٦٩٩٤)، وصححه الألباني.

ثم جاءت ثمرة حديث البطاقة بأن أنقذته وأعتقته الشهادتان من النار .. كما أعتق الإشهاد الأكبر صاحبه من النار.

فهم الحديث ومعايشته

نص الحديث:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ أَوْ يُمْسِي: اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلَائِكَتَكَ، وَجَمِيعَ خَلْقِكَ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ أَعْتَقَ اللهُ رُبُعَهُ مِنَ النَّارِ، فَمَنْ قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَعْتَقَ اللهُ نِصْفَهُ، وَمَنْ قَالَهَا ثَلَاثًا أَعْتَقَ اللهُ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِهِ، فَإِنْ قَالَهَا أَرْبَعًا أَعْتَقَهُ اللهُ مِنَ النَّارِ**»(١).

مفتاح الفهم والمعايشة:

أولًا: أهذه الكلمات الكريمات دعاءٌ، أم ذكر؟!

سبحان الله فلقد أجاب رسول الله ﷺ عن هذا أجمع جواب وأكمله وأحكمه؛ وذلك بقوله ﷺ: «**مَنْ قَالَ**» فاتسع المجال وشمل وعلا، فمَن جعله ذكرًا فقد «**قَالَ**»، ومَن دعا به فقد «**قَالَ**»، ومَن أراد به الاثنين فقد «**قَالَ**».

إن هذه الكلمات فهي ذروة الذكر، وهي ذروة الدعاء، كما رأينا وسنرى بإذن الله.

أما كونه ذروة الذكر فلأمور: الأول: أن فيه ما قال الرسول ﷺ: «**خَيْرُ الدُّعَاءِ**

(١) رواه أبو داود (٥٠٦٩)، قال الإمام النووي في الأذكار (١ / ٦٥): روينا في سنن أبي داود عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال عبد القادر الأرنؤوط: (١ / ٦٥): قال الحافظ في تخريج الأذكار: إنه حسن. اهـ

دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْـمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»،[1] وهو أفضل ذكر لأفضل يوم -يوم عرفة- .. ودونكَ فضائلَ لا إله إلا الله.

وأما الأمر الثاني: فلأن **فيه أعظم شهادة لمخلوق** وهي [وأشهد أن محمدًا عبدك ورسولك]، وبها يكتمل الدخول في الإسلام، وبعد الدخول إلى الإسلام يأتي الارتقاء إلى جميع مقامات الإيمان.

وأما الأمر الثالث: فلأن في أول هذا الذكر قد أشار إلى أَجْمَعَ الأذكار وأوسعها وهو [سبحان الله وبحمده عدد خلقه]، ولكن هنا لم يأتِ ذكر الخلائق مجملًا بل جاء ذكر الخلق مفصَّلًا تفصيلًا، وأما **الرابع**: فهذا الذكر لم يرد فيه ذكر بعض أسماء الله الحسنى إلا أن محور هذا الذكر كله هو اسم الله [الله]، والذي هو مسمى الأسماء الحسنى كلها كما يقول الإمامُ البِقَاعِيُّ عنه. فبمجرد أن جعله وحده محورًا لهذا الذكر فقد جمع سبحانه جميع أسماء الله الحسنى في هذا الذكر، ولهذا ما قال: إنك أنت الله [الرحمن]، ولا [العزيز]، ولا غيرها من الأسماء الحسنى، ولو قال ذلك لانصرف المعنى المقصود والتجلِّي المراد إلى معنى اسم الله [الرحمن]، أو معنى اسم الله [العزيز] وهكذا، ولكنه قال: «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**».

وأما الخامس: فإنه ليس هذا الذكر مجرد ذكر كما في سائر الأذكار -وكلها

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٨٥)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَحَمَّادُ بْنُ أَبِي حُمَيْدٍ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حُمَيْدٍ، وَهُوَ أَبُو إِبْرَاهِيمَ الْأَنْصَارِيُّ الْـمَدِينِيُّ، وَلَيْسَ هُوَ بِالْقَوِيِّ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ، وقال الأرنؤوط: فيه محمد بن أبي حميد ليس بالقوي، لكن سنده حسن في الشواهد.

عظيمة- إلا أنه ذكرٌ مع الإحسان، بل ذكرٌ مع إشهاد الله سبحانه، وعلى هذا المحور الأعظم جاءت كل كلمات الذاكرين بهذا الذكر للمستشهدين.

وأما السادس: فهو أنه ذكر ويحمل جزاءه الواضح معه.

وأما كون هذا الإشهاد دعاء وذروة الدعاء:

ألا ترى أولًا كيف وَجَّه الرسول ﷺ قلب كل مؤمن إلى الدعاء به بقوله في أوله: «اللَّهُمَّ» بمعنى: يا رب استجب، هكذا منذ الابتداء.

ثم إنه يشمل دعائين مجابين أحدهما دعاء يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو مجاب، وقد قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

كما أن فيه الدعاء الثاني المجاب لأن فيه اسم الله الأعظم: عَنْ بُرَيْدَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: «سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا» يَدْعُو وَهُوَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**»[(١)]، فقال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى».

وكيف لا يكون ذروة الدعاء وفيه تحقُّق النجاة من أعظم محذور وهو أعظم ما يُستعاذُ منه، وأعظم غايات الاستغفار .. وأعلى مطالب المستغيثين .. وغاية غايات الفارِّين إلى الله المستنجدين بالله.

كما أن فيه تحقُّق دخول الجنة -بإذن الله- والجنة وهي أعظم مطلوب، وقد قال النبي ﷺ لذاك الذي قال: أَمَا إِنِّي لَا أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلَا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ: «حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ»[(٢)]،

(١) رواه الترمذي (٣٤٧٥)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) رواه أبو داود (٧٩٢)، وصححه الألباني.

وقد قال ربنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ثم إن النبي ﷺ أخبرنا أن بهذا الذكر يثقل الميزان، وتطيش السيئات، وَيُحَقَّقُ الرضوان كما في حديث صاحب البطاقة وقد مَرَّ بنا قبل.

وأخيرًا فإن طريقة هذا الدعاء طريقة عظيمة مُفَضَّلة على أحب ما يكون الدعاء فيها لله ويقبلها؛ إذ فيه الإلحاح أربعًا والتي قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُحِبُّ الْمُلِحِّينَ فِي الدُّعَاءِ»(١).

ثانيًا: صفقة بحق: ألا ترون إلى أركان هذه الصفقة:

يا عباد الله: ألا ترون كيف جاء رسول الله ﷺ بهذا العقد المُحكم والأكبر الذي صاغهُ صياغةً واقعيةً ... فيها كل ما في العقود البشرية رغم صبغتها الربانية، وحقائقها العظمى، إنها الشهادةُ الحاملةُ الإشهادَ الأكبرَ للوجود ومَن في الوجود، ورب العالمين سبحانه فوق هذه الشهادة شهيد، وفوق هؤلاء الشهود على هذا العقد شهيد سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ **هذا هو الطرف الأول .. وطرفها الآخَر** عبدٌ واحد من عباد الله هو أنا وأنتَ وأنتِ وهو وهي، ومثل هذا العقد العقد الذي قال عنه الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]، وما الصفقة إلا بين الله وعبده، وما كل الخلق إلا شهود.

---

(١) أخرجه الطبراني في الدعاء (٢٠)، وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٩٥): سَنَدٌ رِجَالُهُ ثِقَاتٌ إِلَّا أَنَّ فِيهِ عَنْعَنَةَ بَقِيَّةٍ عَنْ عَائِشَةَ.

وهي على كل حال **صفقة حقيقية لا صفقة مثلها** ... فصياغتها صياغة شاملة لكل الحضور والشهود .. شهادة ناطقة مسموعة لكل الوجود .. شهادة ربانية يشهدها الموجودون الآن في الوجود ومَن سيكونون في الوجود إلى اليوم الموعود ...

صياغة واضحة بَيِّنَة، محددة كأنها صياغة العقود التي نثبتها فيما بيننا وبين بعضنا نحن العباد .. ليأخذها المستشهِدُ مأخذ الجدية، وليخرجها من إطار النظرية، فالعقود هي المُحْكِمة للصفقات الواقعية الكبرى، والتي تتصف بالمسئولية.

صياغة عقد جاء في أوله إثبات الطرفين .. وجاء إثبات طالب العقد نفسه وأنه هو من طلب بقوله: «اللَّهُمَّ إِنِّي» وجاء الإثبات الأول من قبل العبد المتأدِّب مع سيده تمام الأدب، الراجي قبول طلبه وهو في غاية الرجاء، مقدِّمًا ذكر رَبِّه في العقد على ذكر نفسه قائلًا: «اللَّهُمَّ إِنِّي»، وهل تعني اللهم من حيث التفسير اللغوي إلا [يا الله]؟!

ألا ترون: كيف جاء تثبيت توقيت هذا العقد فكما نكتب نحن في عقودنا: [إنه في الساعة الفلانية] مثلًا فقد جاء هنا تحديد وقت العقد إنْ كان وقع في شطر اليوم الصباحي أثبته في أول العقد لزومًا «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ**»، وإن كان وقع في المساء حدَّدته أنتَ قبل البدء فيه بقولك: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَمْسَيْتُ**»! ولا يجوز الخلط في التوقيت إلا أن يكون المرء ذاهلًا.

ألا ترى كيف أن إثبات التوقيت كان في ذروة الدقة، فقد اعتبر التوقيت بالنسبة للذاكر وذلك لأنه هو الطالب، ولأن بقية أطراف الوجود لا يَعْلَمُ العبد

بالوقت عندهم ولا بزمانهم لذلك فإن وقت العقد الذي يلتزم به جميع الشهود من الخلق إنما هو توقيت طالب العقد وصاحبه، أما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو خالق الزمان والمكان ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فكان اللفظ المحدِّد للتوقيت: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ»، و «اللَّهُمَّ إِنِّي أَمْسَيْتُ».

ألا ترون: أن في هذا العقد الإشارة إلى توقيت صلاحية «اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ» إنما هو الصباح وبعد الصباح يكون قد خرج وقته، فللمساء عقده الذي يصلح له وَحْده .. ومع هذا فقد جعله الله عَزَّوَجَلَّ توقيتًا موسَّعًا ولم يربطه بأول الصباح، ولا بعد الصلاة مباشرة.

ألا ترون: كم في هذا النوع من العقود تعليمًا وتأديبًا للمؤمن أَنَّ للهِ عملًا بالليل لا يقبله بالنهار، ولله عمل بالنهار لا يقبله بالليل .. ولا مخرج من هذا إلا أن يؤدِّي المؤمن عمله في وقته ولا يؤخِّره عن وقته.

ألا ترون: كيف استدعى العبد هنا الشهود بإذن ربه على هذا العقد .. كما نأتي نحن لإثبات العقود بالشهود، وما كان لأحدٍ من المطلوب شهادتهم إلا أن يشهد لأنه طَلَبٌ من العبد الذاكر عن طريق الله رب العالمين.

ألا ترون كيف جاء موضوع العقد في آخره كما هو المعتاد وموضوع العقد هو أعظم موضوع على الإطلاق! «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ**».

ألا ترون كيف شرع تجديد هذا العقد في الصباح وكذا في المساء ليكون على مدى أيام العمر إلى لقاء الله!

ألا ترون ثمن العقد مذكورًا بوضوح بالحديث الشريف، وبتفصيل دقيق ..

فكل مرة يذكر فيها الإشهاد لك فيها عِتق رُبع رقبتك أيها الذاكر من النار! وهكذا حتى التمام .. وبهذا الثمن يصبح هذا الذكر ملتصقًا به التصاق روحه ببدنه، مهمًّا عنده أهمية حماية نفسه من النار، وحمايته لسمعه وبصره وقلبه، وحمايته لرأسه، وصدره، ووجهه وجنبه وبطنه وظهره، وحمايته يده ورجله وجلده وكلّه ... لأنها هي عتق ذلك كله من نار الله.

اللهم إنا نسألك الجنة ونعوذ بك من النار.

ثالثًا: استدعاء الشهود

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلَائِكَتَكَ، وَجَمِيعَ خَلْقِكَ».

يا رب: ما هذا الحشد العظيم في هذه الشهادة التي لم نعرف لها نظيرًا في كل الشهادات في الدنيا .. لأنها الشهادة لأعظم أمرٍ في كل أمرٍ **«أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ»**، فمَن هذا الحضور في هذه الشهادة ... وأي حق أعظم؟!

إنها شهادة بحق .. وأعظم شهادة حق .. شهادة قرب .. شهادة مواجهة .. شهادة شاهد، ومشاهدة **«أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ»**.

إنه الاستدعاء الذي لم يترك شيئًا في الوجود أبدًا إلا استدعاه لأداء الشهادة ..

ألا يا نفسي: فلقد استشهدت كل شيء في الوجود على نفسي أمام ربي، فليشهد كل شيء على شهادتي ... على نفسي إِنْ نكثتُ أو نقضت .. أو أنقصت .. فهل تعرفون شهادة مماثلة لهذه الشهادة .. أو طالبًا لكل هؤلاء الشهود على نفسه؛ ألم تبتدئي أيتها النفس بالقول: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ»** أو **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَمْسَيْتُ أُشْهِدُكَ»**؟

أي عظمة في شهادة عبدٍ لا يرى في هذا الوجود العظيم الهائل الذي لا يظهر له حدٌ أبدًا .. وهو يحشد لها ما يراه وما لا يراه ..ليعلن لك يا ربِّ أمام خلقك أجمعين غيرَ هيّابٍ من خلقك ولا وَجِلٍ ولا متردِّد أنني أنا طالبُ الوجود كله أن يشهد عليَّ، وأنا متقدِّم معتزّ «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ**».

يا رب: لو استطعتُ أن أصيح في هذا الوجود كل صباح ومساء صيحة تبلغ كل شيءٍ فيه؛ من منتهاه إلى منتهاه لصحتُ تلك الصيحة في كل صباح أربعًا .. وليسمع الوجود مني استدعاء الوجود ما ظهر منه وما غاب لأجل أن أُسمعه مباشرة «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ**» سبحانك. وهل هذه الشهادة تُكْتَم ... وما ينفعني إن كتمتها .. وهل حياتي ومماتي إلا مربوطة بها ... وهل لي من غاية في الحياة إلا أن أُبَلِّغها الوجودَ كُلَّه ... إذًا فهذا الإشهاد الأكبر هو البلاغ الأكبر .. فما أجمل الحياة فيها وما أحسن الموت بالختام بها.

هنا تأتي معايشة الشهادة الكبرى معايشة عظمى .. ماشيًا وحيدًا في الطريق:

فالليل بهيم والأمر عظيم، فيا أيها الذاكر: ربما تكون معتكفًا وأنت تُرَدِّدُ هذا الذكر وتعيشه .. وربما تكون قائمًا أو قاعدًا أو على جنبك .. أو ربما تقوله -كما هو أكثر حالاتي ومنها ما قيَّدتُه هنا من تدبُّراتي- تقوله وأنت تمشي في الطريق ليلًا .. وربما مررت ببعض ممراته المظلمة ... وربما كنت طوال الطريق وحيدًا فريدًا .. تشعر حقًّا بخلوةٍ ما في داخلك فإذا بالله عَزَّوَجَلَّ يذكِّرك ويُشعرك بأنك الآن مع جمعٍ لم تفكِّر بهم يومًا ولم تحسب لهم حسابًا، ولن يقدر على أن يحسب الحاسبون لأعداد شهداء ينتظرونك الآن، وتلك هي والله الحقيقة العظيمة التي لا مرية فيها .. والتي يبعثها الله في كل مرةٍ في نفسك من

خلال كلمات هذا الدعاء العظيمة ... وسبحان الله؛ فإنك تكاد تشعر أحيانًا بذلك الجمع من حولك، وأنك نقطة صغيرة لا تُرى بين تلك الجموع المحيطة بك والتي يعجز كل الحَسَّابين على حسابها ويعجز النظر وامتداده مهما امتد عن بلوغ أبعادها إلا رب العالمين، فهو القائل سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم:٩٣-٩٥].

إن في هذا الوجود العظيم وهذا الملكوت الكبير .. وأنت تطلب شهادتهم لِأعظم أمرٍ على الإطلاق «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ**» تُوقن عندها أن الله عَزَّوَجَلَّ يريد أن يدعوك هو سبحانه لنفسه أَوَّلًا ليكون هو سبحانه أول الشاهدين لك سبحانه على طلبك وشهادتك: «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ**»، وأنه سبحانه ما دعاك إلا ليأتي بك ويحضرك .. ولذلك فإن الشعور الذي يغمرك هنا هو الهيبة التي تشعر أن قلبك يذوب لعظمتها وجلالها .. وهذه العلامة الإيمانية إنما تعني أنك أتيت فعلًا عظيمًا حقًّا .. ومقامًا إيمانيًّا كونيًّا وجدانيًّا وجوديًّا لا نظير له فضلًا عن أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ قد قَبِل طلب استشهاده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وسمع طلبك، وأنه وهبك ما أردت قطعًا -بإذن الله-.

نعم؛ فلا بد أن تتوقف هنا فترة وأنت تردِّد وتردِّد، والحقيقة هي أن قلبك لا يستطيع أن يجتاز «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَمْسَيْتُ أُشْهِدُكَ**» بل هو لا يريد أن يجتاز .. فهو لا يشعر أنه أَخَذَ منها حظَّه بعد ... ويحافظ الذاكر على ترديدها ولا يزال .. وتأتيه المعاني في كل مرة من عيون ما تحمله كلمات الذكر العظيمة هذه وتزداد .. وكلما زادت عيونها تَفَجُّرًا زاد هو لها عطشًا واشتياقًا .. حتى يأتيه الأجل وهو لم يشبعْ ولم يرتوِ .. **ولا يروي ظمأه شيء إلا أن تتحوَّل هذه الشهادة إلى**

مشاهدة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] .. ولا بد أن يكون لهؤلاء الذاكرين بهذا الذكر خصوصية .. ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وهل يستوي مَن عمل مع مَن لم يعمل .. وهل يستوي مَن لم يبالِ، ولم يُفَكِّر بهذا ولم يتدبَّر مع مَن ثار قلبه كل يومٍ يقدّم الشهادة الكبرى وأعظم رجاءٍ عنده إنما هو المشاهدة الكبرى في الآخرة .. وهو على هذا كل يوم وكل ليلة .. وهو على هذا عمره كله .. وهو إذ يرجو هذا فإنما يرجوه من ربه وهو يعايش عبادة الله كأنه يراه؟!

وسبحان الله العظيم فَثَمَّ عائق الوجدان الخفي دون الرحلة فإن المجرب هذه الرحلةَ لَيَجِدُها -والله- زادًا لا يمكن إلا ويشتاق إليه .. ولا يمكن إذا لم يذكره لشاغل من الشواغل إلا ويشعر أن لفقده وجدًا، وفراغًا، ووحشة لا يسدّها شيء سواه.

سبحان الله العظيم فإن المجرِّب كذلك ربما إذا ما تذوّق لذة عبارات هذا الذكر ليلة .. فجاءت الليلة القادمة وقد أعدّها لهذه الليلة .. وكل جهده أن تكون هذه الليلة مثل البارحة فإن المجرِّبِ يقول: إنه لا يجد في هذه الليلة لذة، ولا معايشة، ولا رحلة رغم الإعداد والثقة بكلمات الشهادة الكبرى! .. إنها أحرف تمرّ على لسانه ولم تبلغ قلبه! وهذا جزاءً وفاقًا، فإنه نسي أن ما جاءه إنما جاءه من الله عَزَّوَجَلَّ ... وأن الله هو مَن ناداه، وأنه سبحانه هو مَن بلّغه .. نسي كل ذلك وظن أن الأمر أصبح معتادًا كما يقال .. والطريق واضحًا وقد عرفه وخبره وليس ثَمَّ شيء جديد! .. وليس عليَّ شيء إلا أن أقول الذكر .. فأبلغ مباشرة!

وهذا من فضل الله على العبد .. وهدايته له .. لئلا يخطئ فَيُقِرَّهُ الله على

خطأه .. حاشا لله؛ بل الله يردّه حتى ينطلق كما ارتدّ موسى فوجد الخضر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فانطلقا.

رابعًا: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ»:

الله أكبر ولله الحمد: فإن هذه لشهادة حق ليس لها أول ولا لها ابتداء، وليس لها آخر ولا لها انتهاء ... إنما الذي زاد هنا هو دخولي أنا نصًّا في هذا المشهد المهيب .. الهائل .. العظيم .. الكبير .. الواسع الذي لا حدَّ له ولا عدَّ ولا حساب .. ولا أحد يعلم بذلك أبدًا إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأنه سوف يحشر كل هذا العدد من عباده حشرًا حقيقيًّا يُسْمِعُهم الداعي، ويُنْفِذُهم البصر ...

والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

فالحقيقة أن كل مرة أقول هذا الدعاء العظيم في هذا الحشد القائم الكبير ما حضر منه وما غاب عن عيني إنما أستدعيه على شهادتي ليكونوا جميعًا شهودًا في ذلك اليوم المشهود، وذلك الحشر المحشود في اليوم الموعود ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود:١٠٣-١٠٩].

خامسًا: «وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلَائِكَتَكَ»:

والحقيقة كذلك هي أني حين أعلنت عبودية هؤلاء جميعًا فإنما جعلت

نفسي أول الشاهدين بالعبودية على نفسي بين كل هذا الحشر المنقطع النظير.. وإنه لآتٍ في موعِدِه من غير تأخير.

يا رب: إني لأشعر أن كل المطلوب شهادتهم هم الأعظم في هذا الوجود كله، ولكن الشيء الذي ليس مألوفًا شهادته، وشهادته ليس أعظم منها شهادة هي شهادةُ حملة عرشك! أليسوا هم الأقرب إلى عرشك ربي .. أليسوا هم من الذين لا يشفعون إلا لمن ترتضيه .. ولا يَتركون مَن طلبهم يومًا للشهادة إذا طلبهم يومًا للشفاعة .. أليسوا هم مَن قدَّمتْهُم ربي في الذاكرين .. وقدَّمتهم في المستغفرين لنا ولذرياتنا، فقلتَ وقولُك الحق: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

يا رب: يا رب فمَن أعظم علمًا من حملة عرشك «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ**»، يا رب ومَن أعظم فرحًا من حملة عرشك بعبدٍ على الأرض اسْتَشْهَدَهُمْ شهادةً تقول: «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ**»؟!

«وَمَلَائِكَتَكَ»: يا رب: إذا كانت ملائكتك هم **الذين يجوبون الطرقات** بحثًا عن الذكر والذاكرين، وإذا كانوا هم مَن يَحُفُّون مجالس الذكر ويحفون الذاكرين، ويقتربون ويقتربون حتى يَحُفُّوهم حقًّا، فكيف **فرحهم اليوم وأنا أطلبهم ليشهدوا عليَّ؟!**

يا رب: إنها لشهادة لي يا رب؛ كيف وأنا أقولها وقلبي يطير معها حبًّا وإخلاصًا منك عنا ونداء مِنَّا إليك سبحانك: «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ**».

يا رب: يا رب كيف هي غِبطة ملائكتك ربي هذا الصباح وهذا المساء وكل يومٍ وأنا أستشهدهم على هذه الشهادة وأستأمنهم عليها؟!

كيف غبطتهم بعد زوال تخوُّفهم الأول حين قالوا غيرةً لك ولذكرك: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة:٣٠].

سادسًا: ولهذا فإنها شهادة لن تُردَّ أبدًا بإذن الله:

يا رب: سبحانك فلو لم تُلقِّنَّا هذه الشهادة العظيمة، فَمَنْ منَّا تخطر له هذه العبارات الكريمة على بال؟! ووالله لو اجتمعنا من أوَّلنا إلى آخِرنا لما خطرت لنا خاطرة أن نصيغ شهادةً هذه الصياغة، وأن نبتدئها بإشهادك ربي على نفسي وأنت ربي أرحم بي من نفسي وأنت على كل شيء شهيد .. ثم شرعت ربي بإشهاد حملة عرشك، ثم بملائكتك، ثم بجميع خلقك من الأولين والآخرين، ومن المؤمنين وغير المؤمنين، من الأحياء والأموات، من العاقل وغير العاقل، من النجم والشجر، والجمادات، والإنس، والجن .. وكل شيء.

سبحانك اللهم وبحمدك: كيف لَقَّنتنا أن نُشهدك ربنا سبحانك أنت، وأن نجعل طلبنا شهادتك هي المقدَّمة، فسبحانك ما أعظمك ربنا! وأي عظمة تظهر هنا متجلية من عظمة لطف الله وقربه واقترابه، ومحبته ووده إذ هو مَن يلقِّننا هذه الكلمات .. وهو مَن يدلُّنا على الطريق كلمة كلمة .. وعبارة عبارة .. وموضعًا موضعًا ... أَوَلسنا ذرية ذاك الأب الكريم آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الذي أيقن بالخسران

والهلاك إن لم تدركه فأدركته وأخذت ربي تلقنه كلمات القبول لتقبله وما أن قالها حتى قبلته ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

شهادة لن تُردّ: سبحانك ربنا كيف جعلت ضمانات القبول في هذه الشهادة، فشهادة تَقدَّم الشاهدين فيها مَن طَلَبْنَا الشهادة لعظمته «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ**» لا يمكن **أن تُرَدَّ، ثم شهادةٌ يتقدَّم الشاهدين فيها حملةُ العرش إلى ذي العرش لن تُرَدَّ، وشهادة يصعد بها إلى الله ملائكة الله** .. وهؤلاء لا يصعدون إلا بأمر الله ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:٥٠]، ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤]، **ولهذا فإنها شهادة لن تُرد.**

وشهادة يجتمع لأجلها وعليها خَلْقُ الله أجمعون **لن تُرد** ... فسبحانك ربنا سبحانك ..

وشهادة ابتداؤها باسمك الله «اللَّهُمَّ»، ومحور شهادتها بـ «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ**»، وختامها برسول الله ﷺ **لن تُرَدَّ أبدًا.**

وكيف تُرَدُّ وأنت مَن تلقينا منك هذا، ولقَّنتنا كل هذا الحق العظيم؛ وأي حقائق في الوجود أعظم وأجلُّ من هؤلاء الشهود، وأي ضمان في إجابة دعاء أكبر من أن تُلَقِّنَ صاحبه كلماته:

لَوْلَمْ تُـرِدْ نَيْـلَ مَا نَرْجُو وَنَطْلُبُهُ مِنْ فَيضِ جُودِكَ مَا عَلَّمْتَنَا الطَّلَبَا

سبحانك اللهم وبحمدك: فمَن يستطيع أن يجمع الخلق أجمعين سواك، مَن يستطيع أن يجمع المؤمنين وغير المؤمنين على شهادة واحدة **سواك** ..؟!

مَن يستطيع أن يقول للسماوات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١] **سواك؟!**

مَن يستطيع أن يجمع شهادة مَن في السماوات ومَن في الأرض **سواك** .. مَن يستطيع أن يجمع شهادة كل شيء ليمنحها المؤمن خاصة والذي يقول هذا الدعاء على الأخص **سواك**؟! أفيستدعيهم الله عَزَّوَجَلَّ للشهادة ثم تُردُّ شهادتهم ربي؟!

هكذا تذهب أعداد الذاكرين مع هذا الذكر وحدهم ويرحلون من هذه الدنيا كما يرحل الصباح والمساء منفردين بهذه الشهادة «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ**» .. فالمؤمنون الذاكرون بهذا الذكر هم المُسْتَشْهِدون وهم الشاهدون وهم المشهود لهم؛ أولم يقل الذاكر: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ، وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ، وَمَلَائِكَتَكَ وَجَمِيعَ خَلْقِكَ، أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ**» أوليس هو مَن قال: [أني أشهدك]، وقد صَحَّ في رواية أخرى لهذا الحديث تخصيص أهل السماوات والأرض بالشهادة .. فيا لها من شهادة مقبولة قبولًا مطلقًا. والوجود كله على الشهادة لهذا المؤمن مؤَمِّن .. يعضِّد بعضه بعضًا.

فَعَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ وَأُشْهِدُ مَلَائِكَتَكَ وَحَمَلَةَ عَرْشِكَ، وَأُشْهِدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ**»[(١)].

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١٩٢٠)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، وكذا رواه الطبراني في المعجم الكبير (٦٠٦٢).

سابعًا: شهادة الذين كفروا مهمة وهي حجة عليهم:

سبحانك ربنا فلقد جعلت الحجة يا رب على الذين كفروا في هذا الذكر بالغة، فأمرٌ نَطَقَ به الوجود كله وأَعْلَنَ «أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ»، ومع هذا يتخلَّف الكافر عن الوجود كله، ثم هو يتعجَّب كيف يَكُبُّه الله على وجهه في نار جهنم؟! وقد قال سبحانه عن هؤلاء الكافرين وأمثالهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾ [آل عمران ٨٧].

وأي شهادة على الإنسان أعظم من شهادة فطرته التي فطره الله عليها ﴿ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء:١٤] هذه الشهادة التي تسمعها فطرة الكافر من المؤمن الشاهد بهذه الشهادة الكبرى .. المستشهد للوجود للشهادة الكبرى وهو يُرَدِّدها مع غيره من المؤمنين الذاكرين الله بهذا الذكر تخصيصًا كل صباح ومساء وبغيره على وجه العموم ففطرة الكافر تشهد هنا بها وتقول: «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ**» رغمًا عنه ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ ﴾ [لقمان: ٢٥]، لكنه هو يعلن تمرُّده حتى على فطرته ... ثم هو يستغرب كيف يَكُبُّه الله على وجهه في النار؟!

ولقد جعلها الله حُجَّة قاطعة عليه، كما جعلها حُجَّة مقبولة للمؤمن، كما قال سبحانه عن حُجِّيَةِ فِطرته: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدۡنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٠].

ثامنًا: ليس هذا الذكر حجة للمؤمنين الذين أهملوه:

سبحانك ربي: كيف جعلت الحجة في هذه الشهادة حتى على المؤمن الذي ما دعا ولا طلب هذه الشهادة إذا ما تساءل يومًا؛ لِمَ يا رب حُرِمت من شهادتك، وشهادة حملة عرشك، وملائكتك، وجميع خلقك؟

فجوابك أيها المؤمن المتسائل: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، **هذا أولًا، أمّا ثانيًا:** فإن هذا مؤمن وأنت مؤمن، لكن هذا المؤمن هو مَن طلب شهادة الله عَزَّوَجَلَّ كما شرعها رسول الله ﷺ والله ما ردَّه ... ولمَّا لم يردّه الله عَزَّوَجَلَّ لم تردّه حملة العرش، ولم تردّه الملائكة، ولم يردّه أحد من الخلق ... ولهذا فإنه بناءً على طلبه فقد مُنح هذه الشهادة التي لا تعادلها شهادة، وكان هذا الرجل يكرِّر طلبه كل يوم ثمان مرات أربعًا في الصباح وأربعًا في المساء .. أي أنه كان يطلبها طوال عمره؛ وعلى مدار الليل والنهار.

وفي المقابل فإن المؤمن الآخر يغفل ويواصل الغفلات .. يغفل عنها ثمان مرات؛ أربع غفلات في الصباح، ومثلها في المساء .. وربما يستثقلها أربعًا في الصباح وأخرى في المساء، ولا أريد أن أقول: إنه يُعْرِضُ عنها ... فهل يستوي مَن لم يطلبها مع مَن طلبها وإن كان الاثنان مؤمنَيْنِ؟!

تاسعًا: أعظم شهادة براءة من الشرك:

سبحان الله العظيم سبحان الله وبحمده: فليس الوقوف أمامَ أَيِّ شيء وأمامَ كُلِّ شيء وكل الخلق مجتمعون كالوقوف أمام رب العالمين طلبًا لشهادته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ... كل شيء بعد الله هيّن .. وكل شيء بعد الله مخلوق .. وما من شيء إلا بعد الله رب العالمين ... وما من شهادة إلا من خلال شهادة الله ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. **فسبحان الله**

العظيم كيف تبقى قلوب المؤمنين لا يخطر لها خاطر بِشِرْكٍ في الله أبدًا، ولا يخطر لها شرك الوساطة مع الله أبدًا، فهي إذ هي تستشهد حملة العرش وتستشهد ملائكة لا يخطر لها خاطر أن تطلبها شيئًا أو تستغيث بها في شيء أبدًا إنما هي الشهادة لله وحده لا شريك له .. بل إن هذا الدعاء يزيدها تعظيمًا لله وتقربًا له كما يزيدها عبودية لله وحده لا شريك ..!

ثم ألا ترى كيف انفرد العبد وهو بكامل العبودية والتذلُّل بين يدي ربه وهو يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ**»، **ولم يقل: وحملة عرشك، إنما فصل المخلوقات جميعًا فقال:** «**وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ**»، ثم قال مثلها في البقية فأضافها بحرف الاشتراك المطلق وهو الواو فقال: «**وَحَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلَائِكَتَكَ وَجَمِيعَ خَلْقِكَ**».

وأمر آخر هو أن كل هذا الوجود الذي احتشد عن بكرة أبيه جاء يعلن أنه كله مخلوق، وأنه كله عبد لله رب العالمين، وأنه كله من غير استثناءِ أحدٍ من أعلى عليين إلى أسفل سافلين .. من حملة العرش إلى آخر الخلق مقامًا .. ولآخر الخلق مكانًا .. ولآخر الخلق وجودًا وزمانًا ... كله يقر هنا ويشهد على شهادتي لك يا رب: «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ**»، فمحمد ﷺ كذلك «**عَبْدُكَ**» فهو ليس خالقًا ولا معبودًا، وإنما هو أول العابدين وأعظمهم، وأنه يشرف بهذا ولا يستنكف ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، كما أن حملة العرش والملائكة عباد الله لا يستنكفون من عبادته ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾ [النساء:١٧٢-١٧٣].

عاشرًا: إلى هناك سأحملك يا عبدي: سبحان الله العظيم:

أين يُوصِل الله عَزَّوَجَلَّ عبده في هذه السياحة الحقيقية؟! إنها سياحة الروح .. سياحة الإدراك إلى عالم اللا إدراك .. سياحة مِنْ هنا ونحن في هذه اللحظة على الأرض إلى أبعد نقطة في الوجود - كما يتراءى للناس - بل بعد الوجود كله إلى حملة العرش.

فهل يحلم أحد من سائحي بقاع هذه الأرض بسياحة أَبْعَد منها؟!

إلى هناك سأحملك عبدي ... إلى عرشي وهل فوق هذا فوق وهل بعد هذا بُعْد؟! إن هذه السياحة حقيقية كأنها قطعة من روح هذه الكلمات تسري إلى روح الذاكر .. ولا تنفك عنه أبدًا .. متى أَصْغَى لها فِكْرُه .. وسَمِعَ صَرِيرَ أَحْرُفِهَا قلبُه.

نعم إنك حين يريد الله لك القرب يجريه على تصوُّرك كما يجريه على لسانك .. كيف لا وإن عدة القرب حاضرة وهي هذه الكلمات الكريمة العظيمة .. ودعوة الله .. فأسْلِمِ الفكر للكلمات الكريمة .. وأعطِ التصور مادة الكلمات وارحل في تجلياتها ... فمَن ذا في هذا العالم يحلم أن يرحل إلى حيث يريد الله له أن يرحل ... إلى حيث خط النبي ﷺ طريق الرحلة العظيمة هذه لهذه الكلمات الكريمة في الشهادة الكبرى، وهو ﷺ المجرِّب وصاحب الرحلات الأعظم والتي ما انقطعت عنده أبدًا من ليل أو نهار أو يقظة أو منام ﴿ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا

رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴾ [النجم:٧-١٨].

حقًّا والله لا شيء مطلقًا أعظم من شهادة الله عَزَّوَجَلَّ، ولا شيء أكبر من شهادة الله، ولا شهادة بعد شهادة الله ألم يقل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۚ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] كيف إذا كانت شهادة الله لعبده الذي طلب منه سبحانه، وتذلَّل، وألحَّ، وتفكّر، وادَّكر .. حتى حَظِيَ بها، ورحل وهو أسعد الناس بها؟!

فمن رَحَلَ هذه الرحلة مطلع صباح كل يوم ومساء كل يوم فإن من الطبيعي أن يجني ثمراتها بإذن الله ولا بد أن يجد اليقين وإن كان قد وجده - من قبل - لا بد أن يزداد منه بإذن الله، فأي يقين بعد يقين الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ .. ومع هذا قال سبحانه عن رحلته هناك: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وقال الله سبحانه عن رحلة رسوله ﷺ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ

ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١-١٧]، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

حادي عشر: هل تتوقَّف عند «أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ» أم تستطيع المُضِيّ؟

لك أن تتوقف أيها المعايش لكلمات الشهادة الكبرى عند كلمة [الله] عَزَّوَجَلَّ ولك أن تمضي لبيانها بقوله: «**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ**» ولك أن تفعل هذا مرة وهذا مرة ولك ما شئت وفي كلٍّ خير فالمعنى محكم الاتصال، أما أنا فوالله لا أطيق إلا التوقف ثم التوقف ثم التوقف وذلك في أغلب أحوالي .. وهل يملك القلب إلا التوقف ولو لمرة واحدة من المرات الأربع ويبقى اللسان لأجل القلب يعيد ويعيد؟!

ولقد توقفت أمام هذه الكلمة «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ**» كثيرًا كثيرًا فأي كلمة مثلها؟! وكان من نتاج ذلك التوقُّف هو بعض ما دار في صدري مما تراه هنا في هذا الكُتَيِّب الذي أسأل الله أن يجعله مباركًا.

سبحان الله العظيم: فإن المجرِّب لا يملك إلا أن يتوقف عند محور هذا الذكر كله، والكلمة التي عليها مداره، وعليها مدار كل شيء «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ**» وكل ما جاء بعدها فإنما هو يدور حولها وهو حق من حقوقها «**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ**» فالله عَزَّوَجَلَّ لم يذكر أي اسم من أسمائه الحسنى هنا، ولا ذكر شيئًا غير هذا، ولهذا فإن المجرِّب السير في هذا الطريق كلما وصل إلى هذه الكلمة العظمى توقف وعاد، ثم رجع فذكرها، ثم توقف وعاد .. ثم رجع فقال: «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ**»، ثم توقف وهكذا وهكذا!

إنه التنبيه الإلهي إليك بأنك أيها العبد الذاكر قد وصلت، وأنك قد واجهت،

وأنك قد حُقَّ لك الآن أن تقدِّم ما تريد مباشرة، وها أنت تقول قولًا مباشرًا: «أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ» ..

إن كل ما في هذا الذكر لأجل هذه الكلمة .. إن دعوة الله لي ولك ولكل ذاكر هذا الذكر للحضور مبنيَّة على أن تأتي للحضور وتخاطب ربك مباشرة، ولذا فإنك بمجرد أن تغفل عن حضورك أمام ربك تأتيك الكلمة التي بعدها، والإشارة تلو الإشارة، تأمَّل «**اللَّهُمَّ**» .. «**أُشْهِدُكَ**» .. «**حَمَلَةَ عَرْشِكَ**» .. «**وَمَلَائِكَتَكَ**» .. «**وَجَمِيعَ خَلْقِكَ**» «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ**».. «**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**».. «**وَحْدَكَ**» «**لَا شَرِيكَ لَكَ**» .. «**وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ**» «**وَرَسُولُكَ**».

وأنا إذ أقول هذا أكرر ... وأنا أفعل هذا .... وأحاول هذا .. وأعتقد أن هذا المقام بل هذا الخطاب هو ما كنتُ أسعى إليه، وهو الغاية؛ وهل يتوقف الناس إلا عند الغايات؟! وإني لأعتقد جازمًا أن المرء لن يبلغ هذه الغاية بالكتابة، ولا القراءة، ولا مجرد التكرار .. وإنما بأن يكون القلب بهذا التكرار متوجهًا قاصدًا داعيًا يطلب، ولأنه بتكرار هذا الخطاب إنما يرجو المزيد على ما بلغ، وأنه يخاطب ربه باليقين؛ أن **عندك يا رب** المزيد من درجات الإحسان، بل من تقريب الإحسان.

فيا رب هب لي من كنوز الإيمان والإحسان قَوْلي: «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ**».

يا رب اجمع لي قلبي وقَوْلي معًا على «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ**».

يا رب لا يليق أبدًا مني ولا ينبغي لي، بل وليس من الأدب مني أن تغيب يا رب عن قلبي، بينما لساني يقول: «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ**»!

يا رب أغلب الناس يسعون إلى القرب ومقامات القرب .. وأنا يا رب

أطلبك القرب أكثر وأكثر .. إلى منازل أعبدك إذ أنا أقول هذا الدعاء كأنني أراك، بل يا رب وأنت الودود القريب إني لأرجو التقريب، وأن أستشعر التقريب وأتحسَّسه، وأن أعيش التقريب وأعايشه .. ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩].

«**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ**»: **هنا عن اسم الله [الله]** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: فلقد توقفت كثيرًا كثيرًا أمام عظمة سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١].. وتوقفت توقفًا طويلًا منطرحًا راجيًا مناجيًا عند اسم الله [الله] جَلَّ جَلَالُهُ ... فكان هذا هو ما خُطَّ في قلبي قبل أن يخطه قلمي وأنا أكتب عن اسم الله [الله] عند أول كتابي [الخلاص في بيان سورة الإخلاص] كان عنوان تلك المقدمة في ذلك المقام [انطراح المناجي وهو يناجي]، فكانت هذه المقدمة لكلمة الجلالة العظمى [الله]: فقلت هناك:

يا رب أنا ما طلبت مُحالًا حين وقفتُ أمام أحرف اسمك العظيم الأعظم [الله] .. راجيًا فهمًا تفهمنيه .. يا مَن فهَّمتَ سليمان مسألته، ويا مَن فهمت سيد الخلق رسول الله محمدًا ﷺ كل شيء[(١)].

ومع هذا فإني أشعر أني أمام المحال!

يا رب ما طلبته لأريه الناس أو أرويه لهم بقلم ولا لسان، ولكني طلبته

---

(١) كما في الحديث: «**مَا لِي وَقَدْ تَبَدَّى لِي رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَنْتَ أَعْلَمُ أَيْ رَبِّ. قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى يَا مُحَمَّدُ؟ قُلْتُ: أَنْتَ أَعْلَمُ أَيْ رَبِّ. فَوَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ فَوَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيَيَّ، فَعَلِمْتُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾** [الأنعام: ٧٥]». رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٧٢) رقم (٦٤٤)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ مُخْتَلَفٌ فِي إِسْنَادِهِ.

لأَعْرِفَه، وأُحْيِي به قلبي، وأُحيي به حياتي... ثم لأُعرِّف خَلْقك عن هذا الاسم الكريم العظيم فقط ...

يا رب قد حاولت معرفة اسمك [الله] تَبَارَكَ وَتَعَالَى أكثر وأكثر فإذا بي كأني أُطرد وأُردّ ... ويُحال بيني وبين ما أردت، فأعود كئيبًا ... حزينًا ... مخذولًا ..! ثم أعود معاودًا المحاولة ليالي وأيامًا .. ودروبًا مختلفة .. أبوابًا متنوعة .. أفكارًا وأطوارًا .. فلا وعزتك لا أجد إلا المحال!

أعوذ بك يا رب أن أسألك ما ليس لي به علم ... أو أسألك مما هو محال على خلقك .. إنما أنا على باب الأحرف متوقف ...

يا رب: أحسب أني أخذت بأسباب العلم المعروف فيها .. قَرأتُ في ميدان مَن فَسَّرها ... قرأت ما قاله أهل اللغة ... قرأت للمتخصصين في الكتابة في أسمائك الحسنى ... قرأت لأهل تفسير الكتاب العزيز ... قرأت، وقرأت، وقرأت ... لكني كلما قرأت لم أجد إلا نسخة مكررة ينقلها الآخر عن الأول في تصوره البشري عن أعظم كلمة .. عن [الله] جَلَّجَلَالُهُ.

فيا رب ... يا رب: أنا لا أريد إلا إشراقة من أَحْرُفِ هذه الكلمة يحتملها قلبي ...

لا أريد إلا نفحة من أحرف هذا العَلَم: عَلَمِ الألوهية: [الله] جَلَّجَلَالُهُ ... نعم إشراقة ...

طلبتُ همسة .. ليس من الكلمات التامات التي لا تنفد ... ولكن من كلمة الكلمات ... من أحرف اللفظ الأعظم [الله] جَلَّجَلَالُهُ ...

يا رب ... فقط من الأحرف ... من الأحرف التي ظهرت فقرأناها، وقُرِئت

فسمعناها ... وكُتِبت فرأيناها! لا أريد إلا من الأحرف ..! فهل يا رب لهذا الطالب من جواب؟

يا رب ... فإن فَهَّمتني ووهبتني ذلك ثم غُلِبْتُ على عهدي فبيَّنتُه للناس فعافني واعفُ عني واسترني، واجعل بياني ذاك غَيْرة خالصة لوجهك، ومحبة عارمة لا أطيق كتمانها لتعريف العباد بك ليعبدوك كثيرًا ويسبِّحوك كثيرًا إنك كنت بنا بصيرًا .. ويتلذذوا باسمك الأعظم [الله] جَلَّجَلَالُهُ أكثر، ويعظم اشتياقهم للقائك أكثر وأكثر ... أريدهم كأنهم لأول مرة يسمعون أحرف كلمة [الله] .. لعظم ما أرجوه مما ستفتحه علينا بها بفضلك وإكرامك.

يا رب ... هَب لي هذه الإشراقة؛ يا رب حتى لو كانتْ خيطَ سَنَا من إشراقة ... حرفًا في همسة برَّاقة .. قُطَيْرَة من موجة رَقْراقة ..

يا رب ... **أستغفرك، وأتوب إليك**، فإني -اليوم- أخشى أن أزعم أنني عدت -الآن- من رحلتي هذه بشيء من كل شيء! لا والله ثم لا ...! لكن القلب -في هذه اللحظة- غير ما كان عليه قبلها ... البصيرة اليوم اختلفت ... الحيرة الآن قد خَفَّت من جهة وزادت من جهات، كالطفل كلما تعلَّم الأرقام الأولى تفتَّحت عليه أرقام وأبواب وحسابات، فالأمل قد عاد لهذا الطفل، بينما كان قبل ذلك يحسب أنه لن يعرف أي شيء ... فاليوم يستطيع القلم أن يتحرك بك فيكتب شيئًا عنك سبحانك ... يستطيع اللسان أن يفيض، ولكنه من الحيرة والحياء لا ولن يفيض ... لأن اللسان سوف يخاطب خَلْقك عنك مباشرة، وأنا والله يا رب - أحلف - باسمك ربي [الله] حين أكتب هذه الأحرف كأني لست أنا؛ فالذِّهْنُ قد ذُهِل، والقلب مرتجف، والجلد مقشعر ... والقلم يسير في هذا

الميدان وهو لا يدري ولا أملك التحكم فيه ... فأنَّى لي أن أتحدث بلسان عنك سبحانك جل جلالك ...؟!

يا رب: ما أسهل أن أجمع أو أتحدث في معنى الأحرف كما هي في القواميس والكتب، وأذكر اختلافهم في مصدر كلمتك العظمى [الله] جل في علاه، ما أسهل هذا الطريق المسلوك الآهل، وما أكثر من كتبوا فيه! ... لكن أنَّى لما أردتُ من سالكين سابقين قد كتبوا؟! **تُرى هل عُرِّفت بها إذ لم يعرفها الأولون لذا لم يكتبوها؟** فقناعتي تقول: قد ذهب ثلة الأولين وقلوبهم ممتلئة بخشية الله ..، والخشوع لله ..، والخوف من الله ..، ومحبة الله ..، وإجلال الله، وتقوى الله ..، والعطاء لله ..، والأخذ لله ..، والغضب لله، والرضا لله ..، والوصل لله، والقطع لله .. والولاء لله، والبراء لله ... كل ذلك لأنهم عرفوا الله حقًّا .. ليس لُغَةً ولا تصريفًا ولا لحونًا؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:٨٣-٨٥].

وهل في ذلك من شك؟! لكنهم ذهبوا وذهبت تلك المعرفة العظمى ذخيرة بينهم وبين الله، وخبيئة لا يفك أقفال أسرارها وكنوز مناجاتها إلا الله ... فو الله إن ذلك العلم هو الذي أطار اشتياقهم للقاء الله ... وأطار نومهم من فورهم للوقوف بين يدي الله قائمين وقاعدين ومضطجعين وراقدين ... فأعظم الله عَزَّوَجَلَّ تحملهم للوقوف استغناءً وشكرًا لله، وأعظم التذاذهم بقراءة كلام الله ... نعم إنهم لم يكتبوا لكنهم بهذه المعرفة الحقة ... وهذا الذي ملأ صدورهم

أنشأوا جيل التابعين، ثم تابعيهم، وبهم بقي هذا الدين إلى هذا اليوم. حقًّا هم لم يكتبوا كثيرًا لكن مَن كتب منهم، أو ما رُوي عنهم ولو كلماتٍ قليلة .. فقد حَمَلَتْ من أنفاسهم المعظِّمة لله أمورًا تعجز مجلدات النثر والشعر أن تحمل حقائقها وما فيها ..

ومَن ذا الذي يستطيع أن يعرف أي علاقات تكوَّنت بين تلك القلوب، وبين كلمة الله العظمى تلك هي [الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى] .. وإن مما ظهر لنا من تلك العلاقات علاقة العديد من أصحاب رسول الله ﷺ بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ فلنتدبَّر كيف صنع معها صاحبها، ثم كيف صنعت هي له بعد ذلك، وذلك بعد ما صنعت في قلبه، بل في حياته ما صنعت؛ فَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَى جِبْرِيلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِتَبُوكَ، فَقَالَ «**يَا مُحَمَّدُ، اشْهَدْ جَنَازَةَ مُعَاوِيَةَ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْمُزَنِيِّ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَنَزَلَ جِبْرِيلُ فِي سَبْعِينَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَوَضَعَ جَنَاحَهُ الْأَيْمَنَ عَلَى الْجِبَالِ فَتَوَاضَعْتُ، وَوَضَعَ جَنَاحَهُ الْأَيْسَرَ عَلَى الْأَرَضِينَ فَتَوَاضَعْنَ، حَتَّى نَظَرَ إِلَى مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَجِبْرِيلُ وَالْمَلَائِكَةُ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ، بِمَا بَلَغَ مُعَاوِيَةُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الْمُزَنِيُّ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ؟ قَالَ: بِقِرَاءَةِ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ قَائِمًا، وَقَاعِدًا، وَمَاشِيًا، وَرَاكِبًا**»[(١)].

سبحان الله؛ فهذه علاقة أنشأها هذا الصحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع هذه السورة العظيمة، ولم يعلم بذلك، حتى رسول الله ﷺ لم يكن يعلم، ولذا سأل جبريل

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٨٧٤)، وقال: لَمْ يَرْوِ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ إِلَّا بَقِيَّةُ، تَفَرَّدَ بِهِ: نُوحُ بْنُ عُمَرَ الْحِمْصِيُّ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٣٨) رقم (٤١٩٨): فِيهِ بَقِيَّةُ وَهُوَ مُدَلِّسٌ، وَلَيْسَ فِيهِ عِلَّةٌ غَيْرَ هَذَا.

عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: «**يَا جِبْرِيلُ، بِمَا بَلَغَ مُعَاوِيَةُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الْمُزَنِيُّ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ؟**» ولو لم يكن فعل مثل هذا العمل الصالح معروفًا أو مشهورًا أو مشروعًا من الصحابي نفسه ابتداءً، ولما أن علم رسول الله ﷺ فقد جعل رسول الله ﷺ أمره واسعًا للأمة، وما نهى النبي ﷺ أصحابه عن هذا العمل، ولا هذه العلاقة وما قال لهم: لا تفعلوا مثل هذا حتى أخبركم، أو قال للصحابي: زادك الله حرصًا ولا تَعُدْ، بل إن إخباره ﷺ بهذا الحديث والحادثة إنما هو من الحضِّ عليها وعلى مثلها، وهو ﷺ قد فتح بهذا بابًا من أبواب الصدقة الجارية لمعاوية المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى يوم القيامة، وكل ذلك لرسول الله ﷺ.

سبحان الله؛ فأي مبلغ بلغتْ به رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في معرفة الله، والقرب من الله، وتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ حتى لم يكد يسكن ويعيش بغيرها؟! بل أي رفعة رفع الله هذا الرجل حتى يأتي جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فيخفض له كل عالٍ من الأرض لرفعته التي بلغها بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فالرفعة بالرفعة والجزاء من جنس العمل.

وأي قرب واقتراب من [الله] رب العالمين عرج إليه هذا الإمام الذي لا يكاد يُعرف بين الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حتى يقرب الله عَزَّوَجَلَّ له المسافات .. إذ رسول الله ﷺ بعيد عن مكة والمدينة فيشرفه إذ يأتي برسوله ﷺ ليصلي عليه، والجزاء من جنس العمل. وأي معرفة عَلِيَّةٍ ملائكية .. بلغها قلب معاوية المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واستقرَّتْ في قلبه عن الله سبحانه .. مما جعل الله يتفضَّل عليه ويجعله مثلًا ومنارًا فيأتي له برسوله ﷺ، وبهذا الصنف من المصلين عليه وهم جموع الملائكة الذين لا نعرف أعدادهم يتقدمهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ .. فلكأنه بما وصل

إليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومقامه الذي بلغه تصلي عليه الملائكة ... ويتقدم الجميع والجموع سيد الخلق رسول الله ﷺ .. لقد عاش معاوية المزني حياته على المحور ذلك هو ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وعلى محورها ومحور كل شيء إنه اسم الله [الله] عَزَّوَجَلَّ .. لقد اجتذبته ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، فقال ما أمره الله عَزَّوَجَلَّ به وحين قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال .. وقال .. وقال ولا يزال يقولها حتى ودَّع هذا العالم وهو يقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١-٤].

ثاني عشر: «وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ»:

الله أكبر ولله الحمد: إن هذا لسِجِلٌّ عظيم يشمل الوجود كله .. وإنه كما جعلت اسمي فيه موجودًا حاضرًا مستشهدًا وشاهدًا .. فهكذا يجعل اسمه كل مسلم آخر ذاكرًا بهذا الذكر غيري ... وهكذا وهكذا .. فيا لسعادة مَن قَبِله الله وجعل اسمه هناك عنده وقَبِل شهادته، وَوَسَّع سبحانه أسماع الخلائق جميعًا فسمعت شهادته كما جعل سبحانه الموتى يسمعون بأنفسهم سلام من يزورهم مِمَن يُسلِّم عليهم وهم في قبورهم والله على كل شيء قدير .. وإذا جاء يوم القيامة يقول الله لمَن استُشْهِدوا في هذا الذكر من الخلائق أجمعين: أدُّوا ما اؤتمنتم .. واشهدوا بما اسْتُشْهِدْتُم .. يقال لهم ذلك كما يقال للأرض ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، «**أَدِّي مَا أَخَذْتِ**»(١).

ويا لهناء أمة محمد ﷺ: بأن هذا السجل بهذه الطريقة وهذه العظمة في

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٥)، وصححه الألباني.

الشهادة إنما هو خاص بأمة محمد ﷺ: «**وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ**».

نعم للأمم الأخرى شهاداتها التي تناسبها، ولو افترضنا لهم نفس الشهادة لكنها سوف تكون خالية من ذكر رسول الله ﷺ ..ويكفي أمة محمدٍ ﷺ أن في شهادتهم ذكر رسول الله ﷺ «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ**».

وهكذا تأتي أمة محمد ﷺ بأعداد لا يحصيها إلا الله من الشهادات العُظْمَى التي تنفرد عن جميع الشهادات .. فهي بالإضافة إلى أن فيها الشهادة لرسول الله ﷺ وإنها لكرامة وأي كرامة فإن فيها كذلك شهادة حق لكل نبي من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وإلا لَمْ تُقْبَلْ شهادتهم لرسول الله ﷺ، فكم هو فَخْرُ هذه الأمة بهذه الشهادات؟!

«**وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ**»: ما أعظم خطأ مَن تعامل مع هذا الشطر الثاني والأخير على أنه شطر ملحق أو أنه زائد .. وإن لم ينطق بهذا الظن بلسانه .. وإنما بتلقيه ومعايشته بجنانه ... وللأسف!

إنه سيد المستشهدين في هذه الشهادة العظمى، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول لهذه الأمة بالنسبة للأمم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فمن كان شهيدًا على الأمة التي هي شاهدة على الأمم لأنها الوسط فهو شاهد على الأمم كلها .. فأنَّى لهذا الشاهد أن يغيب عن مشهد عظيم فكيف بالمشهد الأكبر هذا، وكيف يغيبه الله عَزَّوَجَلَّ ويغيب ذِكره وهو أول المعنيين من الخَلْق به ﷺ؟!

وكم من موقفٍ لا يُذكر أي مخلوق فيه يذكر الله عَزَّوَجَلَّ فيه رسول الله ﷺ فهو ﷺ عند الله حاضرٌ ويُحْضِرُهُ ربه سبحانه معه بالذكر على كل حال. وهذا مبحث عظيم وكبير وطويل، ولكنه مبحث جليل ومُثْمِر لا منتهى لفضائله، وقد تحدَّثتُ عنه في التفسير ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠]، وسوف أذكر لمحة مختصرة جدًّا من ذِكر رسول الله ﷺ في سورة البقرة.

فأين رسول الله ﷺ في سورة البقرة إذن؟!

- **يقولون:** نعم لقد ذكرت سورة البقرة الكريمة القضايا الكبرى، والأمور الأصول والأسس، لكن السؤال هو أين رسول الله ﷺ في كلام الله في سورة البقرة؟!

والجواب: وهل سورة البقرة كلها إلا لرسول الله ﷺ... كما هو شأن القرآن الكريم كله؟!

وأقول: بل أين الموضع الذي لم يتجلَّ فيه ذكر رسول الله ﷺ في سورة البقرة؟!

هات كل أساس من الأسس الكبرى وانظر أين ذكر رسول الله ﷺ عند ذاك الأساس الأكبر فإن لم يكن هو الظاهر الأكبر فإنه هو المضمر الأظهر؟!

فهل تتصور أنه **عند ذِكْر أساس الذرية** وهو آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد ذكر رب العالمين رسوله ﷺ هناك فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ

وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]، هنا ذكر الله سبحانه رسوله ﷺ قبل أن يذكر آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ .. بل قبل أن يذكر خلق آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ذكر الله رسوله ﷺ بالإشارة اللطيفة إليه بحرف الكاف فقال سبحانه: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ ﴾... فهو حيث يُذْكر يقدِّمهُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في ذاك المقام، وهذا لتقديمه في الحب عند ربه، وفي المقام من بين خلْقه، تبارك الله رب العالمين، وإلا فقد كان الله قادرًا أن يقول هنا: (وإذ قلنا للملائكة)، كما قال بعد ذلك: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ ﴾ [البقرة: ٣٤] ...

- **وفي أول موضع ذكر الله فيه الجنة** في هذهِ السورة المباركة قَدَّم الله ذكر رسول الله ﷺ بالتبشير بالجنة.. فهو المبشِّر الأعظم والأول بدار كرامة الله فقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗاۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥].

- **وعند وَضْع أسس أول بيت** وُضِعَ للناس كان رسول الله ﷺ حاضرًا هناك وكان هو ﷺ قبل كل عبادة وقبل كل العابدين القادمين، فقد كان حاضرًا في دعوات إبراهيم وإسماعيل عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ وتأمينهما فقال ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٧-١٢٩]، فمن هو الرسول إلا رسول الله ﷺ... فهو الدعوة التي ارتفعت عند رفع أسس ذلك البيت كما قال النبي ﷺ: «**أَنَا دَعْوَةُ**

أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَكَانَ آخِرَ مَنْ بَشَّرَ بِي عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ»(١) .

- **وعندما ذكر ربنا** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **أساس الأسس جميعًا وهو كلام الله تعالى وتنزله**، ذكر الله أن الموضع الذي استحق أن ينزل عليه في الأرض كلها وفي البشرية كلها من أولها إلى آخرها هو قلب رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]، هنا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي هو روح القدس وهو المكين عند ذي العرش، وهنا القرآن العظيم المصدق والمهيمن على الكتاب كله.. يوضع في صدر رسول الله ﷺ... على قلبه.

- كم مرةً قال لك ربك تَبَارَكَ وَتَعَالَى **يا رسول الله**: ﴿قُلْ﴾ وأشركك سبحانه بالقول في ما أنزل في هذهِ السورة المباركة؟ إنها ثماني عشرة مرة... هذا نوع واحد من خطاب الله له سبحانه فقط... أهذا قليل؟!

- كم مرةً أحال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الجواب عليك يا رسول الله - صلى الله عليك وسلم وبارك -، وإن كان هو سبحانه مَن أجاب؟.. فسمع الناس الجواب منه سبحانه إلا أنه أحضر أولًا رسوله ﷺ.. وأبقاه مقدَّمًا ومَرْجِعًا واحدًا في كلماته التامات إلى أن يلقى العباد ربهم، فقال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ ...... قُلْ﴾.

كم مرةً ابتدأ الله بك قبل كل مبتدأ؟!..

كم مرةً افتتح سبحانه بك أمره قبل كل افتتاح؟!..

كم مرةً قدّمك على مَن تقدمك؟!..

كم مرةً أحضرك سبحانه قبل أن يَحْضر زمانُك، وقبل أن يخلق أهل زمانك ومَنْ فيه وما فيه؟!

---

(١) حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٤٦).

كم مرة عاملك سبحانه على ما في علمه لا على ما في علم الناس..؟

فتأمَّل وتأمل وتأمل؛ فإنه المقام المنفرد وحيدًا بعيدًا عن خلق الله، بعيدًا كبيرًا عند الله.. إنه مقام رسول الله ... بل نقطة في بحر مقام رسول الله ﷺ في بحار سورة البقرة.

- **ألم يجعلك الله محور الزمان،** وخير خَلْقِ الله على مدى الزمان وهم المرسلون عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فقال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة:١-٥]، فمما لا شك فيه أن المرسلين تقدموا النبي ﷺ، ومما لا شك فيه أن ثمة بَعْدَ النبي ﷺ من أمته الكثير بل هو في أول أمته فهو المتأخر زمانًا عن المرسلين المتقدم زمانًا على خير المؤمنين ومع هذا قدّم الله ذكره في الذكر الحكيم ولم يجعله كما هو في الزمان وحسابات العالمين فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، فسبحان الله كيف أَخَّر الله ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ وحقهم التقديم زمانًا..؟!

- وسبحان الله العظيم؛ كيف يخبرنا ربنا عَزَّوَجَلَّ بتقديمه ويعلمنا بأنه سبحانه يريد ذلك التقديم ويقصده وعلمه بأنه قد تقدمه الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وما أنزل عليهم في الزمان الأول .. وينص على هذا التقديم في نفس الآية نصًّا ويقول سبحانه: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ .. فكل الأولويات تتخلَّف وكل الترتيبات تكسر، فإذا حضر ذكر رسول الله ﷺ .. فهو الأول عند الله .. وهو الأقرب إلى الله .. وهو الأول في الذكر وبمجرد حضور رسول الله ﷺ فليتقدم هو وليصطف الآخرون

من بعده كيف شاؤوا.. فهو محور الزمان وهو المقدَّم في المقام.. وهو المقدَّم في خير كلام ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ٤].

- ألم يجعله ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى **هو المقدم والمحور في سورة البقرة المباركة عند التوجه إلى الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَى كما أن المقدَّم في أعضاء الإنسان عند التوجُّه هو الوَجْه... فكان وجهه الكريم أولًا وكانت وجوه الخلق من بعده فقال سبحانه: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة:١٥٠].

وإذا حضر الصالحون وأصلح الصالحين كان هو المحور لهم جميعًا وعليه المدار وهو الشهيد على الشهداء ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

- **كم مرة ذكر الله سبحانه من الأحداث المصيرية** في الحياة فأحضره ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَى بذكره، والْتَفَتَ إليه بالخطاب، وكأنه إذ ذاك كان حاضرًا؛ هناك حادثة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع المَلِكِ الذي ادَّعى الألوهية.. فكان مِنْ قصته ما كان... وكان رسول الله ﷺ كأنه هناك فقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فالأصل في الرؤية هي الرؤية البصرية، والفعل هنا ماضٍ ومن المستحيل أن

يكون المعنى: (ألم تُفَكِّرْ؟) فهذا هو المعنى الحرفي لو جعلنا الرؤية فكرية في قوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.. نعم ليس المراد أن الرسول ﷺ كان حاضرًا حضورًا حقيقيًا هناك - معاذ الله - وإنما المراد إقامة اللهِ رسولَهُ ﷺ مقام مَن كان حاضرًا أو إقامته مقام الحاضر مع ربه سبحانه .. وهذا هو المعنى المجازي الذي هو المستحق الأخذ به، ومن قبل هذهِ أقام الله رسوله ﷺ، معه مقام مَن حضر فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، كما قال سبحانه بعدها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُواْ ۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

فهل يحق لأحدٍ بعد هذا أن يتساءل عن موقع رسول الله ﷺ في قَلْب سورة البقرة... كيف والقرآن كله على قلب رسول الله ﷺ قد نزل، كيف وذِكْر رسول الله ﷺ في سورة البقرة لا يمكن حَصْرُه على وجه الحقيقة.

- **أما ما ظهر من ذكره ولو باسم الإشارة أو الضمير المتصل الظاهر** وليس المستتر إليه ﷺ في سورة البقرة فقد زاد على خمسٍ وثمانين مرة.. وفي كل مرة من المعاني والعِبَر الشيء الذي لا يمكن الإحاطة به.

كيف وسورة البقرة في حقيقة الأمر كلها في الدفاع عنه ﷺ وحمايته من شرّ الدواب على الأرض... وشرور المشركين والمنافقين.

كيف ورب العالمين تولَّى أمره كله في هذهِ السورة أمام ما ظهر له من أعداء وما بطن.

ولقد ذكرتُ سؤالًا يومًا لأخي وحِبِّي أبي عبد الرحمن الشيخ قيس الرفاعي: كم تعتقد أن الله عَزَّوَجَلَّ بشَّر رسول الله ﷺ ببشارة في القرآن؟ قال: كثير، قلت له: فلنأخذ سورة البقرة مثلًا؛ فكم تعتقد أن الله عَزَّوَجَلَّ بشَّر رسوله ﷺ في سورة البقرة من بشارة؟ فقال: لا أدري، ولكنه ذكر لي المواضع الثلاثة التي ورد فيها لفظ البشارة، ثم قال: والله أعلم، لا أدري، قلت له: قد جمعتُ بشكل سريع حتى الآن ستًّا وثمانين بشارة وكتبتها واحدة واحدة من السورة كلها. فتعجَّب من هذا! قلت له وقتها: وأنا أعتقد أنها ستبلغ المائة وربما تزيد. ثم تركتُ هذا البحث أشهرًا منشغلًا بفتوح الفاتحة التي بدرت لي ولم أملك تأجيلها وكتبتُ الكتاب إثر الكتاب والحمد لله رب العالمين، ثم بدر لي ما بدر مما ساقه الله عَزَّوَجَلَّ ليسوق به إلى مراده فارتددتُّ على آثاري قصصًا.. ورجعتُ أَجْمَعُها واحدة واحدة مبتدئًا من ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة:١]، حيث أَذْكُر كل موضع وأُرقِّمه، وأُبيِّن موضع الدلالة من الآية أو الكلمة ووجه الاستدلال، وأذكر بعض الجديد من بيان معاني القرآن في هذا الموضع مما يتعلق بهذا الموضوع باختصار، وهكذا أفعل عند كل موضع .. ثم توقفتُ عن الاستمرار في الكتابة في البشائر بعد ذلك، فقد رأيت في هذا القَدْرِ الكفاية والوضوح لمن أراد سلوك السبيل ليكمل المسير مع القرآن كله .. فهو معي سيطول جدًّا جدًّا، نعم لقد توقفت في هذا البحث حين بلغت إتمام قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣] وعند هذه الآية وهي الآية الكريمة الثالثة والتسعون أكون قد وصلت إلى البشارة

الثامنة والأربعين بعد الأربع مائة (٤٤٨) بشارة، فهل يتصوَّر أحد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد بَشَّر رسول الله ﷺ بكل هذه المبشرات ونحن لنا نصيب فيها جميعًا؟! ألا تكفي هذه المبشرات وأمثالها لإعادة الروح لأبناء هذه الأمة؟ ألا تكفي لإحياء فهم جديد لآيات الله .. وإحياء أمل عظيم ثابت في كتاب الله، ألا تكفي شاهدًا ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩] أن الحياة الحقة في هذا القرآن، وأن القرآن لا تنتهي عجائبه، ولا يتوقف إعجازه مع الزمن بل يزيد. وليس هذا فهمًا جديدًا فحسب، إنما هو اليقين القريب بأن نصر الله قريب.

وأنا أعترف فإنني والله ما كنتُ أبدًا أتصوَّر البشائر بهذا القدر العظيم في القرآن العظيم .. وبهذا الكم الكبير، وبهذه الأهمية العظيمة .. ثم إنه ما من بشارة لرسول الله ﷺ خاصة .. إلا أفاض فضلها على أمته .. فما أغنانا عن البشائر المُؤَلَّفة أو المتكلَّفة وعندنا كتاب الله يزخر بها، والحمد لله رب العالمين.

«**وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ**»: كل الخَلْق قد حضروا بالذكر هنا .. وكل الخلق هم عباد لله رب العالمين .. إلا أن الإشارة هنا لمقام عظيم يتفرَّد به رسول الله ﷺ وهو أنه إذا ما ذُكِرَ «عَبْدُكَ» بشكل مطلق عن واحدٍ من خلق الله فإنه لا ينصرف إلا إلى رسول الله ﷺ، كما قال الله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩]، هكذا إذا ذُكِرَ [النبي] أو [الرسول] بشكل مطلق عن واحدٍ من رسل الله ﷺ لم ينصرف إلى أي رسول إلا لرسول الله ﷺ.

وليس هذا فحسب، بل إن جميع الخَلْق شهود هذا كما في هذا الحديث الكريم الكبير، فالشهادة هنا ليست مقتصرة على الشق الأعظم منها «**أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»، بل الشطر الثاني ملازم وشرط في قبول الشهادة لذا جاء في

الختام «**وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ**»، فما ترك ربنا سبحانه أحدًا من الخلق إلا ذكره لكنه لم يذكر أحدًا باسم العبودية إلا رسول الله ﷺ من بينهم جميعًا، وكذا الرسالة «**وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ**».

ماذا في ذكر هذا الذكر أربعًا

ثالث عشر: «**مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ أَوْ يُمْسِي: اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلَائِكَتَكَ، وَجَمِيعَ خَلْقِكَ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ أَعْتَقَ اللهُ رُبُعَهُ مِنَ النَّارِ، فَمَنْ قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَعْتَقَ اللهُ نِصْفَهُ، وَمَنْ قَالَهَا ثَلَاثًا أَعْتَقَ اللهُ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِهِ، فَإِنْ قَالَهَا أَرْبَعًا أَعْتَقَهُ اللهُ مِنَ النَّارِ**» «**فَإِنْ قَالَهَا أَرْبَعًا**».

الأولى: وماذا يعني كونه أربعًا؟: إن هذا الحديث يعني بتكراره أربعًا أن يعيش المرء هذا الحديث في كل مرة على حدة ويستغرق في معايشته، فإن المرة الأولى التي من هذا الذكر ليست بأحق من الآخرة بالتدبُّر والمعايشة، وإن مَن لم يتدبَّرها في المرة الأولى جاءته المرة الثانية فرصة وفضلًا من ربه، ومَن لم يرتبط قلبه في الثانية ففي الثالثة وإلا ففي الرابعة .. هكذا الأمر في الصباح وكذا في المساء .. والأصل هو انعقاد القلب بها وعليها .. إنها عقد كما سيأتي معنا، والموقِّع عليه من طرفنا نحن إنما هو القلب .. فهو الذي إذا أمضى قُبِلَ إمضاؤه وتم العقد بإذن الله.

الثانية: هذا الحديث بتكراره أربعًا يعني أن كل مَن استشهدتهم يشهدون في كل مرة على حدة –وكفى بالله شهيدًا– يشهدون شهادة كاملة، وهذا يعني أن لها ثقلها في الميزان وعند الرحمن، وهذا يعني أن كل شهادة منها شهادة كاملة، ولها أثرها الكامل، وقبولها الكامل.

الثالثة: وهذا الذِّكْر بتكراره أربعًا يعني الحفظ لهذا الذاكر من الجهات الأربع، بل من كل مكان، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول عن الجهات الأربع: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن:١٧]، أما الحفظ من كل مكان فذلك لأن الشهود استغرقوا كل شيء وكل مكان ومن كل مكان وكل جهة استغراقًا لا يوجد له نظير «أُشْهِدُكَ وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلَائِكَتَكَ، وَجَمِيعَ خَلْقِكَ» فهو لم يُقَيِّده بالإنس والجن ولا بالأرواح ولا بالنباتات، وإنما بكل ما خلق الله، وهل من خالق إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ .. والحفظ هنا من كل الجهات ضرورة التحقُّق مثلها ما ورد في هذا الدعاء الصريح «اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي»(١)، فإن المخلوقات التي استشهدها في الإشهاد الأكبر إنما هي مخلوقات مطلقة من كل جهة وهذا يعني أنه لا يمكن أن يجتمع الإضرار والإشهاد في آن واحد، أيمكن أن يشهدوا لك هذه الشهادة ويضرُّوك معًا عياذًا بالله من هذا الظن .. أضف لهذا أنها مع كل هذه المعاني المقتضية للحفظ والمباركة والتي في كل واحدة منها تجتمع في كل مرة على حدة، فكيف وهي تُكرَّر وتؤكَّد وتُستأنف أربع مرات؟!

الرابعة: نعم أربعًا، وأربعًا كل يوم:

فهل عرفنا لماذا الدعاء بها في كل صباح أربعًا، وفي كل مساءٍ أربعًا ..؟! أكثير على هذه الغاية هذا التكرار .. أكثير على هذا المقام هذا الإلحاح .. أيشبع من ذاق لذتها مرة .. ألا تستثيره لذتها لطلب المزيد .. وهل للذتها من نهاية إلا بالعتق الكامل من النار .. ومن بعد ذلك تحقق غايتها المذكورة المذخورة فيها وهو تحول الشهادة والاستشهاد إلى مشاهدة إذ القلب يهتف في داخله: «**وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ**

(١) رواه أبو داود (٥٠٧٤)، وصححه الألباني.

النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»[(١)].

ثم هل رأيت كل ما قلناه هنا؛ أفتراك تستطيع أن تجمعه كله مرة واحدة، أم تراه أنه كان حصاد لحظة الكتابة هذه ..؟! لا والله، بل هو حصيلة سنين والحمد لله رب العالمين، إذًا فهل عرفت لماذا أربعًا في الصباح وأربعًا في المساء؟! وعلى كل حال فإني لأرجو أن يكون بعد هذا ما بيننا وبين الله سيكون بإذن الله أكثر .. لأنها الموسوعة الأكبر في الأذكار في الإشهاد والتدبُّر، فَحُقَّ لها ذلك، ولا يمكن أن يدرك الخَلْق ما فيها من مرة مرة .. ولك أن تتساءل: فكم سيفوت على الناس ما فيها من آيات كبرى لو كانت مرة واحدة؟!

الخامسة: نعم إنها المرة والمرتان والثلاث والأربع: وسبحان الله العظيم؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يعلم حاجة الإنسان ليعايش هذه الكلمات حق المعايشة ..ويعيش عوالمها.. ويتعوّد قلبه هذه الحياة العظيمة، ويُنشِئ علاقات مع عوالم لا حدَّ لها، فإنه سبحانه قد جعل كلماتها تبعث التصور بعثًا في المرة الأولى وإلا جاءت الثانية فالثالثة فالرابعة «اللَّهُمَّ إِنِّي أَمْسَيْتُ أُشْهِدُكَ» هكذا هذه الكلمة العظيمة ويا لعظمتها، ويا لثقلها، وهكذا كل عبارة من العبارات الكريمة. هكذا تكون رحلتها في صباح كل يوم .. ورحلة الصباح ليست كالرحلة في المساء في الوجود العظيم ...

ثم يأتي المساء فتكون النفس في شوق إلى رحلة الإشهاد في المساء .. **وبدل الرحلة أربع رحلات سائحة أو أربع محاولات** ناجحة أو أربع أجنحة يطير بها في آفاقها بل آفاق المُلك والملكوت كما أن الملائكة أولو أجنحة.

---

(١) أخرجه النسائي (١٣٠٥)، وصححه الألباني.

السادسة: حقًّا إنها المثال الحق لقوله سبحانه: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾:

فإن ما ورد عن رسول الله ﷺ من أن مَن قالها مرة أعتق الله رُبعه من النار، ومَن قالها مرتين أعتق الله نصفه من النار، ومَن قالها ثلاثًا أعتقه الله كله إلا ربعه، ومَن قالها أربعًا أعتقه الله كله من النار. إن في هذا الإشهاد بيانًا لنا أن لا شيء أعظم من النجاة من النار ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وهذا الذكر ضامن بإذن الله ... أيمكن أن يدخل النار وكل هؤلاء شهداؤه وكفى بالله شهيدًا؟!

فهو أولًا فضل الله بهذا الذكر، فمَن قالها مرة واحدة فحسب لم يُحْرَم لأنه قد أَعتق رُبعه، ومَن قالها مرتين أعتق نصفه، ومَن قالها ثلاثًا أَعتق نفسه إلا رُبعه، ومَن قالها أربعًا أَعتق كله بإذن الله، فهذا يعني أن هذا الذكر غنيمة عظيمة سواءٌ كله .. أو بعضه، وأنك لن تعود منه إلا غانمًا.

ومع هذا فهل ترى الإنسان وهو صاحب الجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى ينعم إذا كان قد أُعتق رُبعه فحسب، بل ينعم لو بقي إصبعه الأصغر في النار يتألَّم؟! فكيف إذا كان ثلاثة أرباعه أو نصفه أو رُبعه في جهنم؟! فَلْيعتق العبد نفسه، وَلْيزد احتياطًا.

السابعة: وليعلم العبد أن الحكمة في مشروعية هذا الذكر لا تنتهي .. وأن الحرص على المحافظة عليها والإحسان عند أدائها ينبغي أن يكون في أعلى مقاماتها، ومن ذلك أن كل يوم له ذنوبه، وكل ليلة لها ذنوبها فالحاجة المستمرة للتكفير والعتق من النار ضرورة لكل يوم وكل ليلة، فلربما يومًا يحتاج لربع عتق، ويومًا إلى نصف وهكذا. وَلْيعلم الذاكر أن ما أدَّى العتق من الأربع وزاد فإن هذه الزيادة تتحوَّل للعبد أثقالًا ودرجات.

الثامنة: حتى لو خرج رجل من الدنيا وقد أُعتِقَ رُبعه من النار وثلاثة أرباعه في النار لكان في ذلك خير عظيم، فإن معنى الرُّبُع الذي أُعتق إنما حق هذا الربع إلى الجنة ... والأعلى نسبًا نُسِبَ إليه الأدنى، ورحمة الله تغلب غضبه، ومَن كان له شيء في الجنة فلا بد أن يدخلها، ومَن دخلها لم يخرج منها أبدًا، ثم هذا أولى من غيره بالشفاعة، وإذا كانت الشفاعة تدرك مَن كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان .. فكيف بمَن رُبعه أو نصفه قد استحق الجنة لأنه قد أُعتق من النار بهذا الذكر في الدنيا.

التاسعة: إنها أربع شهادات إذ هي تحمل رسالة لنا تقول: إن لكل يوم عمله، ولكل يوم حسابه، وأن جهنم أقرب إلى الإنسان من شِراك نعله، وأنها تطارد الإنسان كل يوم من الأيام، وأنه لا يغرنَّك عملٌ بالأمس قدَّمته، ولا تغرَّنَّك شهادة بالأمس شهدتها واستشهدتها، وكما في الحديث الذي رُوِيَ والأرجح أنه من قول معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ليس من يوم يأتي على ابن آدم إلا ينادي فيه: يا ابن آدم أنا خلق جديد، وأنا فيما تعمل عليك غدًا شهيد، فاعمل فِيَّ خيرًا أشهد لك به غدًا، فإني لو قد مضيت لم ترني أبدًا، ويقول الليل مثل ذلك»[(١)]، بل لا يغرنَّك في المساء عملٌ عملته صباح اليوم .. ولا يغرنَّك في الصباح عملٌ عملته في مساء اليوم .. وكما قال أبو بكر الصِّدِّيق في وصيته لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**إِنَّ لِلهِ تَعَالَى حَقًّا بِالنَّهَارِ لَا يَقْبَلُهُ بِاللَّيْلِ، وَلِلهِ فِي اللَّيْلِ حَقًّا لَا يَقْبَلُهُ فِي النَّهَارِ**»[(٢)]، وهذه المنهجية من التذكير اللطيف مع هذا التكرار أربع مرات في الصباح وفي المساء أربعًا

(١) التذكرة للقرطبي (٦٧٩)، وقال: غريب من حديث معاوية تفرَّد عنه زيد العمى، ولا أعلمه مرفوعًا عن النبي إلا بهذا الإسناد.

(٢) الزهد لابن المبارك (٩١٤).

ضرورية وذلك لأن أكثر ما يَضرُّ بالإنسان وأكثر ما يدخل عليه منه الشيطان هو تأجيل الأعمال .. وربما يُحرج المذكِّر من كثرة ما يذكر به فيتركه .. فيأتي هذا الذكر التربوي الذي يلازمه صباح كل يوم وغُدُوِّه ومساء كل يومٍ ورواحِه .. إنها شهادة مربوطة بأخطر شيء وهو البقاء في جهنم .. فالفرار الفرار بكل ما يبقيك أيها العبد بنفسك أو يؤخِّر خروجك منها .. وإنها لشهادة للوجود ورب الوجود كله معك .. فلا تؤخِّر بنفسك .. فمزيد لحظة في النار مهلكة وأي مهلكة .. وأخطر ما يؤخِّره الإنسان هو التوبة وأخطر تأخير في التوبة للمسلم هو تأخير حق الغير وهو قادر على سداده. فاحصل على شهادة هذا اليوم وحده، بل احصل على شهادتك للصباح وشهادتك للمساء، فلكل وقت شهادته ولكل وقت عمله، وأنت أحوج ما تكون لها في اليوم الأخير لك في هذه الدنيا.

العاشرة: أربع شهادات ليتكرَّر الإشهاد أربعًا .. ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٦]، فلقد عَلَّمنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآية أنه سبحانه يكتفي من العبد شهادة على نفسه ليُزيل عن نفسه التهمة بأربع شهادات وتبقى الشهادة الخامسة تغليظًا عليه ... فكيف والشهادات الأربع هنا ليست شهادة لنفسه، بل شهادات الوجود كله له .. والخامسة وهي الأولى وهي فوق كل شهادة هي شهادة الله التي بها كان الابتداء «اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ»، وكفى بالله شهيدًا ليَحْكم فيها الله عَزَّوَجَلَّ ببراءة العبد ويوثق سلامته وطهارته من كل ما يقتضي بقاءه في النار، وأما الشهادة الخامسة فهي شهادة بقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ شهادة الحكم النهائي، وهي شهادة الله التي جاءت أولًا .. ولا يليق بها إلا أن تكون أولًا.

الحادية عشرة: نعم إنها أربع شهادات في الليل وفي النهار لتمسح حرمان الليل

وحرمان النهار للعبد أن يبات -لا قدَّر الله- وهو محكوم محروم من الجنة، أو مغلولٌ محبوسٌ بذنوبه. وهكذا يلازم العبد الرضا والفأل الحسن بالليل وبالنهار حيث ينام وهو يتحسَّس أنه عتيق الله، لأنه وَفَّى بشرط العتق ولم ينقضه بأي ناقض فهو أشد ما يكون حذرًا من ناقض ينقض عتقه من النار بهذا الذكر .. ويغدو على ذلك، وهكذا حياته دواليك .. فيا لها من حياة مع هذا الذِّكْر.

الثانية عشرة: وهذا الحديث بتكرار ذكره أربعًا يلفت انتباهنا إلى مبحث في غاية الأهمية، وهو أنه ذكره أربعًا لا يعني أن المرء يتوقَّف عند الأربع لأنه لا يجوز الزيادة عليها! بل الأربع هو الحد الأقل للعتق من النار، وما بعد العتق درجات ودرجات لا يعلمها إلا الله، ولهذا كان الميزان العظيم الذي يزن البطاقة فرجحت كل الذنوب، فالحقيقة أنه ميزان لا حدَّ له مطلقًا لأنه ميزان الآخرة.

إنه ميزان من طراز الميزان الذي يقول النبي ﷺ: «**يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ الْـمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَتَقُولُ الْـمَلَائِكَةُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ**»(١).

ثم إن القاعدة في الأذكار هي الإكثار لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٣]، وفي الحديث: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ، وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا**

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٨٧٣٩)، وقال: «**هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ**»، ووافقه الذهبي.

إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا»، قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: «اللهُ أَكْثَرُ»(١).

ثم إذا انقطع هذا عند حد الأربع وإنه لكثير ومبارك فما ذنب مَن أَخَذَ قَلْبَهُ هذا الذِّكْرُ العظيم وأصبح أسيرًا للعظمة التي تتجلَّى من سماوات هذا الذكر وخبيئاته وكل جزئيات كلماته ... فانطَلَقَ يردِّد ويردِّد وهو في حال مع ربه مباشرة .. فمَن يجرؤ أن يوقفه ويطرده من هذا الذكر ويقول له: انتهى وقتك! مَعَاذَ الله، بل والله إن الأربع داعية للعبد لمزيد التفكُّر في هذا الذكر، ومزيد التفكُّر يقتضي مزيد الذكر .. أي مزيد اجتماع ذكر القلب وذكر اللسان ..

فيا قُطَّاع الطريق إلى الله اتقوا الله وارعَوُوا، فإن لم تكونوا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات فلا تكونوا مِمَّن يَقْطع الطريق على الذاكرين الله إلى الله .. المبطئين عن الصعود إلى ذروة سنام الإسلام ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء: ٧٢] .. الناهين المصلين عن الصلاة، والله عَزَّوَجَلَّ يقول قولًا عامًّا: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق:٩-١٠].

فَلِمَنْ قال عشرًا من كلمة التوحيد أجره، ولمَن قال عشرين منها أجره، ومَن قال مائة زاد الله على نفس الحسبة، وهكذا مَن زاد.

ومَن صَلَّى على رسول الله ﷺ مرة صَلَّى الله عليه عشرًا .. ومَن زاد زاده الله بنفس الحسبة، وهكذا التسبيح، والاستغفار، والاستغاثة، والحوقلة، والحمد، والاستعاذة، وَلَكَمْ يحتاج المرء إلى كثرة الاستعاذة فالشيطان لا يتوقَّف أبدًا نعوذ بالله منه.

---

(١) رواه أحمد (١١١٣٣) واللفظ له، والبخاري في الأدب المفرد (٧١٠)، وأبو يعلى (١٠١٩)، وقال الأرنؤوط: إسناده جيد.

الفهرس

حديث الإشهاد الأكبر في الأذكار ٥
المقدمة: صوت والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ٧
فهم الحديث ومعايشته ١٦
نص الحديث ١٦
مفتاح الفهم والمعايشة ١٦
أولًا: أهذه الكلمات الكريمات دعاءٌ، أم ذكر؟! ١٦
ثانيًا: صفقة بحق ألا ترون إلى أركان هذه الصفقة ١٩
ثالثًا: استدعاء الشهود ٢٢
هنا تأتي معايشة الشهادة الكبرى معايشة عظمى ..ماشيًا وحيدًا في الطريق ٢٣
رابعًا: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ» ٢٦
خامسًا: «وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلَائِكَتَكَ» ٢٦
سادسًا: ولهذا فإنها شهادة لن تُردَّ أبدًا بإذن الله ٢٨
سابعًا: شهادة الذين كفروا مهمة وهي حجة عليهم ٣١
ثامنًا: ليس هذا الذكر حجة للمؤمنين الذين أهملوه ٣٢
تاسعًا: أعظم شهادة براءة من الشرك..... ٣٢

عاشرًا: إلى هناك سأحملك يا عبدي ٣٤
حادي عشر: هل تتوقَّف عند «أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ» أم تستطيع المُضِيّ؟ ٣٦
ثاني عشر: «وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ» ٤٤
فأين رسول الله ﷺ في سورة البقرة إذن؟! ٤٦
ثالث عشر: «فَإِنْ قَالَهَا أَرْبَعًا» ٥٤
الأولى: وماذا يعني كونه أربعًا؟! ٥٤
الثانية: هذا الحديث بتكراره أربعًا يعني ٥٤
الثالثة: وهذا الذكر بتكراره أربعًا يعني الحفظ لهذا الذاكر من الجهات الأربع .. ٥٥
الرابعة: نعم أربعًا، وأربعًا لكل يوم ٥٥
الخامسة: نعم إنها المرة والمرتان والثلاث والأربع ٥٦
السادسة: حقًّا إنها المثال الحق لقوله سبحانه: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ ... ٥٧
السابعة: وليعلم العبد أن الحكمة في مشروعية هذا الذكر لا تنتهي ٥٧
الثامنة: حتى لو خرج رجل من الدنيا وقد أُعتِقَ رُبعه ٥٨
التاسعة: إنها أربع شهادات إذ هي تحمل رسالة لنا تقول ٥٨
العاشرة: أربع شهادات ليتكرَّر الإشهاد أربعًا ٥٩
الحادية عشرة: نعم إنها أربع شهادات ٥٩
الثانية عشرة: وهذا الحديث بتكراره أربعًا يلفت انتباهنا إلى مبحث في غاية الأهمية ٦٠
الفهرس ٦٢

الجمعية الخيرية الكويتية
لخدمة القرآن الكريم وعلومه

حُفاظ .. مرجعية قرآنية

hofath.org

@7offath

65524409

22530136 / 46

بيت التمويل الكويتي 291010006460

بنك الكويت الدولي 011010177427

بنك بوبيان 0488689001

الروضة- ق 3 - ش شهاب أحمد البحر - رقم 4